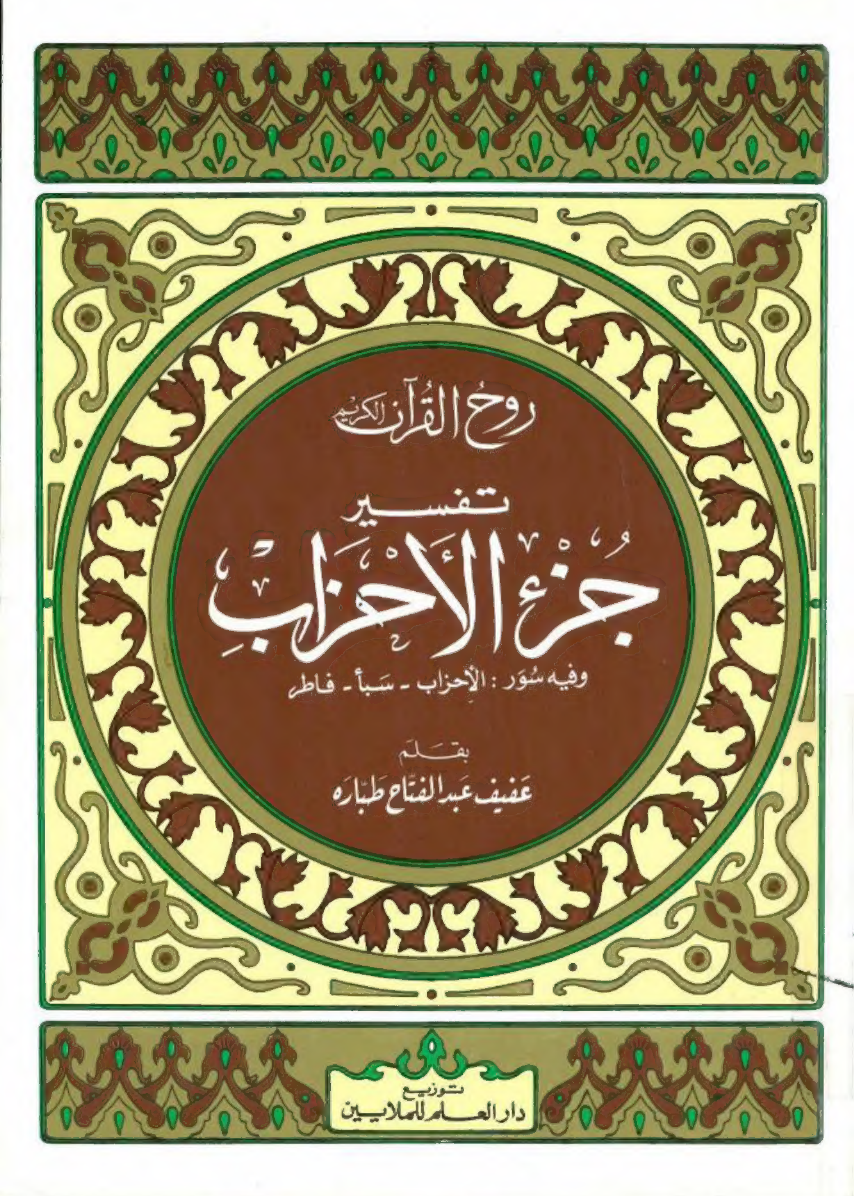


روح القرآن الكريم
تفسير
جُزْءُ الأَحْزَابِ
وفيه سُور : الأحزاب - سَبأ - فاطر
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع
دار العلم للملايين

توضيح

كانت العادة التي جرينا عليها أن نفسّر أجزاء القرآن مفردة وكنا نسمي كل جزء باسم السورة التي يبتدىء بها كل جزء من أجزاء القرآن أو الكلمة التي تستهل بها السورة. وهذا الجزء الثاني والعشرون يبتدىء بالآية ٣١ من سورة الأحزاب وينتهي بالآية ٢٧ من سورة يسّ. ولما كنا حريصين على تفسير السور كاملة في كل جزء إتماماً للمنفعة فلهذا فسّرنا سورة الأحزاب كاملة وتركنا تفسير سورة يسّ بكاملها للجزء الثالث والعشرين وسمينا هذا الجزء «جزء الأحزاب» تجوزاً ليميزه القراء عن غيره من الأجزاء.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التسمية ليست معهودة في كتب تفسير القرآن وإنما جرى العرف بها لاحقاً بين الناس على تداول الأجزاء باسم «جزء عم» و «جزء تبارك» إلى غير ذلك من أسماء الأجزاء المعروفة بأوائل استهلال سورها. ونحن ارتأينا تسمية هذا الجزء باسم السورة التي يبتدىء بها هذا الجزء.

روح القرآن الكريم

تفسير

جزء الأحزاب

وفيه سور: الأحزاب - سبأ - فاطر

الجزء الثاني والعشرون

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

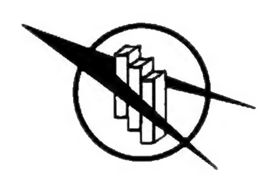
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤١٥ - ٨١٦٦٣٩

برقياً : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



آب (أغسطس) ١٩٨٩

سُورَةُ الأَحْزَابِ

هذه السورة تعالج كثيراً من القضايا، أبرزها: غزوة الأحزاب حيث اجتمع المشركون بأحزابهم وضربوا حصاراً على المدينة المنورة ليستأصلوا النبي ﷺ وصحبه من المؤمنين ولكن اللّٰه رد كيدهم في نحورهم وهزم جموعهم بالريح والملائكة التي أرسلها فكانت معجزة ظاهرة لتأييد اللّٰه لرسوله وللمؤمنين ومن أجل ذلك سميت هذه السورة بسورةالأحزاب.

وهذه السورة أبطلت التبني الذي كان شائعاً قبل الإسلام وأبطلت ما كان ينشأ عنه من أحكام كحرمة تزوج المتبنِّي بزوجة المتبنًّى. كما أبطلت الظهار وهو أن يقول للزوجة أنت عليَّ كظهر أمي فتحرم عليه حرمة أبدية.

وتبيِّن السورة الآداب التي يجب مراعاتها عند دخولهم بيوت النبي ﷺ لطعام وفي انصرافهم عقبه، وفي سؤالهم أزواجه عن بعض قضايا الدين وما يحتجن إليه وأن يسألنهن من وراء حجاب. كما طالبت أزواج النبي ﷺ والمؤمنات بأن يسدلن عليهن من اللباس ما يستر أجسادهن ولا يتبرجن ويظهرن محاسنهن للرجال لئلا يؤذين من أصحاب السوء.

وتدعو السورة إلى الإكثار من ذكر اللّٰه وتبين ثوابه العظيم، كما تتحدث عن المنافقين والمشيعين للأخبار الكاذبة وتنذرهم بسوء المصير.

وتذكر السورة أهوال يوم القيامة وتنصح بالتقوى والقول السديد، وتختتم بالحديث عن الأمانة التي حملها الإنسان ولم تطق حملها السموات والأرض والجبال.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ
لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ
أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ
وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ
أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ

شرح المفردات

توكل على الله : اعتمد عليه وفوّض أمرك إليه.

وكفى بالله وكيلاً : أي اكتفِ به أن يتولى أمرك...

تظاهرون : الظِّهار أن يقول الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي، أي أنها محرمة عليه.

أدعياءكم : جمع دَعِيّ وهو الولد المتبَنّى الذي يُدعى لغير ابيه.

يهدي السبيل : يهدي إلى طريق الحق.

أقسط : أعدل.

مواليكم : مولى المرء من له به صلة لصداقة أو قرابة.

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ
أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ
ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ
وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

شـرح المفـردات

جُناح : إثم .

أوْلى : احق واجدر واراف .

أولو الأرحام : ذوو القرابات من النسب .

مسطوراً : مكتوباً .

ميثاقاً غليظاً: عهداً مؤكداً على الوفاء به .

أعدّ : هيأ .

سُورَةُ الأحْزَابْ

ايضـــاح و دروس

تبتدىء هذه السورة بدعوة النبي ﷺ إلى تقوى اللّه وعدم طاعة الكافرين والمنافقين :

﴿يا أيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللّهَ ولا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالمنَافِقِينَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمـاً. واتَّبِعْ مَـا يُوحَى إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللّهَ كَـانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيـراً. وَتَوكَّل عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّه وَكِيلاً﴾ (١ ـ ٣).

فاللّه سبحانه ينادي محمداً بصفة النبوة لا باسمه إجلالاً لـه وتعظيمـاً، ويأمره سبحانه بتقواه. والمراد بذلك الثبات على التقوى والاستمرار عليها، أو المراد بذلك دعوة أمة محمد للتقوى من باب تنبيه الأعلى ليستقيم الأدنى، فإن النبي إذا كان مأموراً بالتقوى كان من دونه مأموراً بها بطريق أولى، وتقوى اللّه هي العمل بطاعته رجـاء ثوابـه وترك معصيتـه مخافـة عذابـه **﴿وَلا تُطِعِ الكافِرينَ وَالمُنَـافِقِينَ﴾** أي لا تستجب لقولهم ولا تستشرهم ولا تُجارِهم في معتقداتهم **﴿إِنَّ اللّه كَانَ عَليماً حكيماً﴾** إن اللّه عليم بكفرهم، حكيم بما يأمرهم به وينهاهم عنه. **﴿واتَّبِعْ مَـا يُوحَى إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ﴾** واتبـاع الوحي هو العمل به وعدم مخالفته، وإضافة النبي إلى اللّه سبحانه **﴿رَبِّكَ﴾** للإشعار بفضل اللّه عليه في اختياره للنبوة **﴿إِنَّ اللّه كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾** إن اللّه بما تعمل أيها النبي وأصحابك وأمور عباده خبير لا تخفى عليه خافية **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾** واعتمد على اللّه وفوّض أمرك إليه **﴿وَكَفَى بـاللّه وَكِيلاً﴾** وكفى باللّه حافظاً يحفظ من توكل عليه.

ثم ينتقل القرآن إلى إبـطال بعض التشريعـات التي كانت سـائدة عنـد العرب :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُم وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٤ ـ ٥).

فاللّه سبحانه يقول بأنه لم يخلق لأحد من الناس قلبين في صدره[١]، وهذه حقيقة لا يماري فيها أحد، كما أن هناك حقيقة أخرى وهي: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُم﴾ أي وما جعل زوجة أحدكم حين يقول لها: «أنتِ عليَّ كظهر أمي» أُمًّا له. والظُّهار نوع من الطلاق كان سائداً في الجاهلية قبل الإسلام ومؤداه هو أن يحلف الرجل عند خصامه امرأته أنها عليه كظهر أمه، فإذا فعل حرم عليه الاتصال بها جنسيًّا ثم تبقى معلقة فلا هي مطلقة فتتزوج غيره ولا هي زوجة فعلية فتحل له.وكان في هذا الظُّهار من القسوة ما فيه على المرأة، فلما أخذ الإسلام يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية في محيط الأسرة رفع هذا الخسف وأثبت أن قول الرجل لامرأته أنتِ عليّ كظهر أُمي لا يغير الحقيقة الثابتة وهي أن الأم غير الزوجة، وأن القول باللسان لا يغير الحقيقة المطلقة، وهذا من عدالة التشريع الإسلامي الذي جعل حرمة الظهار مؤقتة حتى يؤدي كفارة.

ثم ينتقل القرآن إلى مسألة التبني ودعوة الأبناء إلى غير آبائهم، والتبني معروف عند مختلف الشعوب منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم، وكان العرب يلجأون إليه لزيادة قوة القبيلة، وكان المتعارف عليه عندهم أن الولد المتبنَّى

---

(١) قيل إن هذه الآية نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد.

يدخل في عائلة المتبنّي، ويستفيد من حقوق، كثيراً ما كانت مماثلة لحقوق الولد الشرعي، وهذا ما يحصل الآن في الشرائع الوضعية، وكان العرب يعاملون الذين تبنوهم معاملة الأبناء من كل وجه كالخلوة بالمحارم(١) والميراث وغير ذلك. وكان أكثر ما يقع التبنّي في الحروب حين يؤخذ الأطفال والفتيان في السبي، فمن شاء من المحاربين أو من غيرهم أن يُلحِق بنسبه واحداً من هؤلاء ويدعوه ابنه فعل ذلك وأطلق عليه اسمه وتصبح له بذلك حقوق البنوة وما يترتب عليها. ومن هؤلاء زيد بن حارثة الكلبي وهو من قبيلة عربية سُبي صغيراً في غارة أيام الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام ووهبه لعمته خديجة، فلما تزوج رسول اللّه خديجة وهبت له زيداً ثم طلبه أبوه وعمه، فخيّره رسول اللّه بين بقائه عنده أو الرجوع إلى أهله، فاختار زيد رسول اللّه الذي أعتقه وتبناه، وكان العرب يقولون عنه زيد بن محمد.

ولما نزلت الآيات التي تبطل حكم التبني أبطلت بالتالي ما يتوجب عليه من حقوق، فلا يجوز للمتبنِّى الخلوة بمحارم متبنّيه ولا يحرم عليه الزواج منهن، ولا هو يرث الذين تبنوه ولا هم يرثونه إلى غير ذلك من حقوق البنوة الحقيقة، ورد الإسلام علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية فقال:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُم(٢) أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي وما جعل الأولاد الذين تتبنونهم أبناء لكم يأخذون حكم الأبناء من النسب ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي أن اعتبارهم أبناء لكم هو قول يصدر من أفواهكم ولا حقيقة شرعية له ولا حكم يترتب عليه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ والله يقول القول الثابت المحقق وهو يرشد إلى طريق الحق ﴿ أَدْعُوهُمْ لآبَائِهِم هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

(١) محارم الرجل هن النساء اللاتي يحرم عليه الزواج بهن مثل الأخت والعمة والخالة.
(١) أدعياءكم: جمع دعيّ وهو الذي يَدّعي ابناً لغير أبيه.

والقسط هو العدل، أي أنه أعدل عند اللّه أن يدعى الولد لأبيه الحقيقي وقد روي عن رسول اللّه قوله: «ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلاّ كفر»(١).

والخصائص الوراثية ثابتة علمية، فالولد يحمل خصائص والديه وأجداده وطبائعهم، فإدخال ابن غريب يختلف بموروثاته على عائلة ما، وإلحاقه بها نسباً هو مخالف لواقع الحياة وسننها وتزوير لهذا الواقع. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المتبنّى عند بعض الطوائف من غير المسلمين يرث من الذي تبناه، هذا الإرث هو تَعدٍّ على حقوق أقرباء المتبنِّي وحرمانهم من نصيبهم من الميراث الذين هم أحق به من سواهم(٢).

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فإن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين بأن كانوا لقطاء أو غير ذلك ﴿فَإِخْوَانُكُمْ في الدِّينِ﴾ أي فادعوهم بالأخوة الدينية ﴿ومواليكم﴾ جمع مولى، والمولى للمرء من له به صلة لصداقة أو قرابة. ويطلق على المتبنَّى الذي لا يعلم له أبٌ اسم مولى للمؤمنين لعلاقة الدين التي هي كعلاقة القرابة. فالإسلام يضفي على مجهولي الأب صفة الاحترام ليرفع من إنسانيتهم ولم يجعلهم منبوذين بسبب الوضع الاجتماعي الذي جار عليهم ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي وليس عليكم إثم فيما صدر

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) وناحية جديرة بالاهتمام فإن التبني عند بعض الطوائف الدينية من غير المسلمين يرون أن يكون عمر المتبنِّي أربعين سنة وأن يكون بين المتبنِّي والمتبنَّى فرق في السن قدره ١٨ سنة على الأقل، ولنفرض أن الزوجة تصغر زوجها بعشر سنوات أو أكثر ووجود المتبنَّى مع الزوجة في بيت واحد يطلع فيه على زينتها يكون باعثاً على اضطرام الشهوة بين الزوجة وبين المتبنَّى مما يهدد بعلاقة غرامية تقضي على الأسرة وبالأخص فهذا الابن بالتبني ليس كالابن الصلب فهو لم يرضع منها ولم يتربَّ في حجرها مما يولد عاطفة البنوة الحقيقية التي هي بعيدة عن العلاقات الجنسية.

منكم من خطأ قبل تحريم التبني ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم فيما تقصده قلوبكم عمداً من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يغفر للمخطىء ويرحمه ويتجاوز عنه.

ثم يبين القرآن منزلة محمد ﷺ وأزواجه بالنسبة للمؤمنين مع نسخ نظام المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين وما نشأ عنه من التزامات:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ (٦).

لقد علم اللّه تعالى شفقة رسوله محمد ﷺ على أمته ونُصْحه لهم فجعله أحق بهم من أنفسهم، يحكم فيهم بما يشاء من الحق في كل أمر من أُمور الدين والدنيا لأنه لا يأمرهم إلّا بما فيه صلاحهم. وقد قال الرسول ﷺ: «ما من مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته[١] من كانوا وإن ترك ديْناً أو ضياعاً[٢] فليأتني فأنا مولاه[٣]»[٤].

﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم﴾ أي أن لنساء النبي ﷺ على كل مؤمن مثل ما لأمّه عليه من التوقير والتعظيم والإكرام ومن الحرمة والاحترام، فلا يحل لأحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له أن يتزوج بأمه، ولكن لا يسري هذا التحريم إلى بناتهن وأخواتهن.

---

(١) عصبته: بنوه وأقرباؤه الذين يرثونه.
(٢) ضياعاً: الضائع هو الفقير ذو العيال.
(٣) مولاه: أتولى أمره وأقوم بكفالته.
(٤) أخرجه البخاري.

ثم ينسخ القرآن أحكام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وما كان ينشأ عنها من أحكام كالميراث وغير ذلك. وأسباب هذه المؤاخاة هو أنه لما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة المنورة هرباً من اضطهاد قريش تاركين وراءهم كل ما يملكونه من مال وعتاد، حلّوا ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة الذين استقبلوهم بترحاب شديد، عندئذٍ آخى رسول الله ﷺ بين رجال من المهاجرين ورجال من الأنصار، وقام هذا التآخي مقام أخوة النسب فكان يشمل التوارث والتكافل في الديات.

ولما استقرت الأمور في المدينة المنورة وتوفر الرزق للمسلمين بعد الغنائم التي غنموها نسخ القرآن هذه الأحكام وردّ الإرث إلى قرابة النسب، فقال سبحانه: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ أي أن ذوي القرابات أحق بالإرث من المهاجرين والأنصار ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في القرآن الذي بيَّن فيه المواريث ﴿إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَعْرُوفاً﴾ أي يجوز أن تقدموا معروفاً إلى من واليتم وآخيتم في الدين من غير الأقارب فتعطوه أو توصوا له بجزء من أموالكم ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ كان ذلك التوارث بين الأقارب في اللوح المحفوظ أو في القرآن مكتوباً.

ثم يبيِّن اللَّه ما أخذه على النبيين من العهود لتبليغ رسالته إلى البشر:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً. لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (٧ ـ ٨).

أي واذكر يا محمد حين أخذنا من النبيين العهد المؤكد على أن يعبدوا اللَّه ويقيموا دينه ويبلغوا رسالته، ويصدق بعضهم بعضاً ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾ وتخصيص هؤلاء بالذكر مع أنهم

مندرجون في جملة الأنبياء للإيذان بمزيد فضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع الإلّهية وأُولي العزم من الرسل، وتقديم محمد عليهم لإبانة منزلته العظيمة ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ أي أخذنا على هؤلاء الأنبياء عهداً عظيم الشأن كبيراً على الوفاء بما حملهم الله به من الوحي ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي ليسأل الله الأنبياء يوم القيامة الذين صدقوا عهدهم مع الله عما قالوا لقومهم، وعما كان من أُممهم معهم تصديقاً وتكذيباً، والسؤال هو تبكيت لأقوام الرسل الذين كذبوهم ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ والعذاب الأليم الذي هيأه الله للكافرين هو عذاب جهنم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم
مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ
ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟
زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ
يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا

شرح المفردات

زاغت الأبصار : مالت عن سننها حيرة ودهشة.

الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم.

ابتُلي : اختُبِرَ وامتُحِن.

زُلْزِلوا زِلزالاً شديداً : أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة.

غُروراً : خداعاً.

يثرب : من أسماء المدينة المنورة قديماً.

لا مُقامَ لَكُم : لا إقامة لكم هنا.

بيوتنا عَوْرَة : غير حصينة يخشى عليها من اللصوص.

أقْطَارِهَا : جمع قُطر وهو الناحية والجانب.

سُئلوا الفتنة : طلب منهم الارتداد عن الدين.

لأتوْهَا: لفعلوها.

تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ
الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم
مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم
مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ
لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ
عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ

شرح المفردات

تلبثوا : تأخروا وابطأوا.

يُولّون الأدبار : يفرون من القتال.

يَعْصِمكم : يمنعكم ويجيركم.

المعوِّقين : المثبطين للعزائم، يقال عاقه: صرفه عن الوجه الذي يريد..

البأس : القتال.

أشِحّة : جمع شحيح وهو البخيل الحريص على المال.

يُغْشَى عَلَيْه مِنَ الموت : وهو الذي ينزل به الموت وتغشاه سكراته فيذهل ويشخص بصره.

سلقوكم : آذوكم بكلام تكرهونه.

بألسِنَةٍ حِداد : بألسنة طويلة قاطعة كالسيوف.

أحْبَطَ : أبطل.

يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا
فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن
شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ
قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ
أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

شرح المفردات

بادون : مقيمون في البادية.

الأعراب : جمع أعرابي وهو الذي يسكن البادية.

قضى نحبه : مات في سبيل الله.

ظاهروهم من أهل الكتاب : عاونوهم من اليهود (بنو قريظة).

صياصيهم : حصونهم، مفردها صيصية.

تَابع سُورَةِ الأحْزابِ

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن غزوة الأحزاب وما كابد فيها المسلمون من ألوان البلاء وما رافق هذه الغزوة من تأييد رباني للمسلمين. وقبل أن نعرض الآيات القرآنية التي نزلت في تلك الغزوة يحسن بنا الكلام عنها وما رافقها من أحداث مثيرة:

كان الداعي إلى تلك الغزوة هو أن نفراً من أشراف اليهود الذين أجلاهم رسول الله من المدينة المنورة إلى خيبر هالهم أن يستتب الأمر للمسلمين في المدينة المنورة ورأوا في ذلك خطراً على وجودهم ومصالحهم في جزيرة العرب، لهذا أخذوا يؤلبون قبائل العرب على حرب محمد وجماعته، فخرج هؤلاء اليهود واجتمعوا بأشراف قريش وحرضوهم على حرب النبي ﷺ ووعدوهم بأن ينصروهم ويعينوهم في حربهم فأجابتهم قريش على دعوتهم هذه، ثم قدم هؤلاء اليهود إلى قبيلة غطفان وحرضوهم على حرب المسلمين ورشوهم بمحصول تمر خيبر سنة وأخبروهم بما أجمعت عليه قريش من الرأي في حرب النبي ﷺ فاستجابوا لهم.

فخرجت قبيلة قريش إلى حرب الرسول وقائدها أبو سفيان وخرجت قبيلة غطفان وقائدها عيينة بن حصين وخرج معهما الحارث بن عوف ومعه قومه من بني مرة ومسعود بن رخيلة ومعه قومه من بني أشجع إلى حرب الرسول في جند يبلغ زهاء العشرة آلاف محارب.

ولما بلغ النبي ﷺ خروج هذا الجيش لمقاتلته دعا أصحابه للجهاد فكان عددهم ثلاثة آلاف محارب. وبينما كان المسلمون ينتظرون قدوم المشركين أشار سلمان الفارسي على النبي ﷺ أن يتقي المغيرين بحفر خندق على عادة قومه فقبل النبي هذه المشورة وأمر بحفره وساهم بنفسه في ذلك العمل فكان ينقل التراب حتى اغبرَّ بطنه وهو يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة:

اللهم لـولا أنت مـا اهتـدينـا ولا تـصـدقـنـا ولا صـليـنـا
فـأنـزِلَـن سـكـيـنـة عـلـيـنـا وثـبـت الأقـدام إن لاقـيـنـا
إن الأُلـى قـد بـغـوا عـلـيـنـا وإن أرادوا فـتـنـةً أبـيـنـا

وكان رسول اللّه يرى المسلمين وهم يحفرون الخندق وينقلون التراب بجهد حثيث فكان يقول: اللهم لا عيش إلاّ عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار، وكان سلمان الفارسي يعمل عمل بضعة أشخاص مدفوعاً بشدة إيمانه فتنافس فيه المسلمون فقال الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: بل هو منا، فقال النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة المنورة قريباً من جبل أحد وفي أطرافها، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع والخندق يفصلهم عن المشركين.

وفي هذه الأثناء ذهب حيي بن أخطب اليهودي إلى كعب بن أسد القرظي سيد قبيلة بني قريظة من اليهود فما زال به حتى أغراه على نقض عهده مع المسلمين والانضمام إلى القبائل المتحالفة لقتال المسلمين فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان عليه من العهد مع رسول اللّه.

عند ذلك عظم البلاء على المسلمين وجاهر المنافقون بما تكنُّه صدورهم، فقال بعضهم: كان محمد يرى أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط.

وقف المشركون حيال الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه. وكان كبار قادتهم يتناوبون عليه يناوشون المسلمين، ولم تكن الحرب بينهم وبين المسلمين إلاّ بواسطة الرمي بالنبال، كما جرت محاولات لاقتحام الخندق باءت بالفشل وقتل بسببها بعض المشركين.

وأتى رسول اللّه نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان فقال: يا رسول اللّه إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول اللّه: إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذّلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعة، وهكذا فعل ففرّق بين المشركين وبين اليهود.

وكان رسول اللّه في هذا البلاء يدعو اللّه.فمن دعائه: «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا». «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، الله اهزمهم وزلزلهم».

وبينما الجيشان على تلك الحال والمسلمون في قلتهم مستسلمون لقبول ما قُدّر عليهم مع ترابطهم ترابطاً لا تفصم له عروة إذ هبت ريح عاصفة في ليال شديدة البرد فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتقلع خيامهم، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر وقد أقاموا إزاء الخندق هذه المدة الطويلة التي تقارب الشهر ولم يجدوا وسيلة لاقتحامه فقرروا العدول عن الحرب وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال:

يا معشر قريش واللّه إنكم لستم بدار مقام وقد هلك الكراع[١] والخف[٢] وأخلفتنا[٣] بنو قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل، وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس: ارحلوا، ارحلوا، فجعلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ونجّى اللّه المؤمنين من هذا الخطر العظيم.

---

(١) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(٢) الخف: الإبل.
(٣) أخلفتنا: غدرت بنا.

فاللّه سبحانه يتحدث عن هذه الغزوة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً. إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (٩ - ١١).

فاللّه سبحانه ينادي المؤمنين بأن يذكروا نعمة اللّه عليهم يوم غزوة الأحزاب، وذكر النعمة يقتضي شكرها ﴿إِذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ﴾ والمراد بالجنود الذين جاءوا لمحاربة المسلمين هم جموع قريش وغطفان ويهود بني قريظة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحاً وَجُنوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي فأرسل اللّه على هذه الجموع من الكفار ريحاً عاصفة في ليال شديدة البرد. أما الجنود التي أمد اللّه بها المؤمنين ولم يروها فهي الملائكة التي ألقت في قلوبهم الرعب ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ فالذين جاءوا المؤمنين من فوقهم هم جموع قريش وغطفان ومن شايعهم من القبائل، والذين جاءوا من أسفل منهم هم بنو قريظة من اليهود ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ أي مالت الأبصار عن سننها وانحرفت عن مستوى بصرها من شدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي استبد الخوف والفزع بالقلوب فانتقلت من مكانها إلى مكان الحناجر وهي نهاية الحلقوم وهذا التعبير مجازي يدل على منتهى اضطراب القلوب من عظم الفزع ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي الظنون المختلفة. ظن المنافقون أن المسلمين سينهزمون، وأيقن المؤمنون حقًّا أن وعد اللّه حق وأنهم هم المنصورون ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا بالخوف والقتال والجوع والحصار، وفي هذا الامتحان تميز المؤمن الحق من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ وحركوا بالخوف

تحريكاً شديداً من شدة ما دهاهم حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم.

ثم تأتي الآيات التالية تصف نفسية المنافقين وهم تحت الحصار:

﴿وَإِذْ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالَّذِين في قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاّ غُرُوراً. وَإِذْ قَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُم يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُون إلاَّ فِرَاراً﴾ (١٢ - ١٣).

فالمنافقون هم الذين يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر، أما الذين في قلوبهم مرض فهم ضعفاء العقيدة من المؤمنين، هؤلاء جميعاً يقولون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُوراً﴾ أي ما وعدهم الله ورسوله من النصر ليس حقاً إنما هو لون من ألوان الخداع في الوعد، أو هو باطل في القول ﴿وَإِذْ قَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا﴾ أي واذكر يا محمد إذ قالت جماعة من المنافقين: يا أهل يثرب لا بقاء لكم في مواجهة الكفار ففروا، أو لا بقاء لكم على الإسلام فعودوا إلى الشرك، ويثرب هي الاسم الذي كان يطلق على المدينة المنورة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهم النَّبِي﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الانصراف متعللين بالأعذار ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ يريدون أنها غير حصينة وأنها معرضة لأن يهاجمها العدو وأن يسلب اللصوص ما فيها من أموالهم فلا مفر من الذهاب لتحصينها، ولكن الله ينفي دعواهم هذه بأسلوب التوكيد بالباء الزائدة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرة﴾ ويبيِّن الباعث على ذلك ﴿إِنْ يُريدونَ إلاَّ فِراراً﴾ أي ما مقصدهم إلاّ الهرب من القتال والفرار من الجهاد.

ويتابع القرآن فيصف وَهَنَ عقيدة المنافقين وتقاعسهم عن الجهاد:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إلاَّ

يَسِيراً. وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً. قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُم مِنَ الموتِ أَوِ القَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُم مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُون لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ (١٤ ـ ١٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَو دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي لو دخل المشركون على هؤلاء المنافقين من جوانب المدينة ونواحيها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لأَتَوْهَا﴾ والفتنة هنا تحتمل معنيين: إما قتال المسلمين، وإما الرجوع إلى الكفر، أي إذا طلب من هؤلاء المنافقين قتال المسلمين أو الرجوع إلى الكفر لفعلوا ذلك ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾ أي ما أبطأوا وما تأخروا عمَّا طلب منهم بل أسرعوا إلى ذلك ﴿ولقد كانوا عاهدوا اللَّه من قبل لا يولُّون الأدبار﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل ألا يفروا من القتال[1] ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤولاً﴾ وكان عهد اللَّه مسؤولاً عنه ومطلوباً من صاحبه الوفاء به ومجازى على ترك الوفاء به ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُم الفِرَارُ مِنَ الْمَوْتِ أو القَتْلِ﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الهرب إن هربتم من الموت أو القتل، إن فراركم لن يطيل أعماركم لأن من حضر أجله مات أينما كانت أرضه ﴿وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وإذا لم تنته أعماركم وبقيتم على قيد الحياة لا تتمتعون في الدنيا إلاّ المدة التي قدرها اللَّه لعمركم، ومتاع الدنيا قليل ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُم مِنَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: من ذا الذي يمنعكم من اللَّه ويحميكم ﴿إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ أي هلاكاً ﴿أو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي خيراً ونصراً وعافية ﴿وَلاَ يَجدُونَ لَهُم مِنْ

(١) هم قوم غابوا عن معركة بدر ورأوا ما أعطى اللَّه أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا لئن أشهدنا اللَّه قتالاً لنقاتلن.

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ ولا يجدون غير الله قريباً ينفعهم ولا ناصراً يـدفع السوء عنهم.

ويتابع القرآن الكلام عن هؤلاء المنافقين كاشفاً خفايا قلوبهم ونياتهم:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المعَوِّقِينَ مِنْكُم وَالقَائِلينَ لإخوانِهم هَلُمَّ إلَيْنَا وَلاَ يَأْتُـونَ البَأْسَ إلاَّ قَليلاً. أَشِحَّةً عَلَيْكُم فَإذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُم يَنْظُرونَ إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الموْتِ فَإذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (١٨ ـ ١٩).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ المعَوِّقِينَ مِنْكُم﴾ والمعـوقون هم المنافقون الصارفون الناس عن نصرة الرسول المثبطون للعزائم، هؤلاء يعلم اللَّه أعمـالهم ﴿وَالقَائِلينَ لإخْـوَانِهِم هَلُمَّ إلينَا﴾ وهم يقـولون لإخـوانهم في الكفر والنفاق تعالوا إلينا، ولا تشهدوا مـع محمد قتـالاً، فإنـا نخاف عليكم الهلاك ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إلاَّ قليلاً﴾ ولا يأتون الحرب إلاّ زمنـاً قليلاً، فقـد كانوا لا يأتون إلى معسكر المسلمين إلاّ ليراهم المخلصون فإذا غفلوا عنهم تسللوا تبـاعاً وعـادوا إلى بيوتهم ﴿أَشِحَّـةً عَلَيْكُم﴾ أشحـة: جمـع شحيـح وهو البخيل والحريص، أي بخلاء عليكم أيها المؤمنون بالنصرة والنفقة في سبيـل اللَّه ﴿فَإذَا جَـاءَ الخَـوْفُ﴾ من جهـة العـدو أو من جهـة خـوفهم من النبي ﷺ بسبب انكشاف نفاقهم ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهم﴾ رأيت يا محمد هؤلاء المنافقين تدور أعينهم في أحـداقهم يميناً وشمـالاً من شدة الرعب ﴿كالـذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المـوت﴾. كالـذي نزل بـه الموت وغـطته أسبابه فيـذهل ويـذهب عقله ويشخص بصـره فلا يطرف. ويقال للميت إذا شخص بصـره: دارت عيناه ﴿فَـإذَا ذَهَبَ الخَوْفُ﴾ فـإذا ذهب الخـوف عن

هؤلاء المنافقين وانجلت المعركة ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ آذوكم أيها المؤمنون بالكلام بألسنة سليطة. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ فإن قلباً لم ينبثق منه نور الإيمان لا ينتظر منه في ساعة الشدة إلاّ الجزع، وهو ليس عنده ذلك الدافع الذي يحفزه إلى بذل المال في سبيل اللّه ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ هؤلاء الذين لم يؤمنوا أبطل اللّه أعمالهم وأذهب ما كان ينتظرها من ثواب، لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال الحسنة عند اللّه.

ويتابع القرآن الكلام عن هؤلاء المنافقين مبيناً مدى جبنهم.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿يَحْسَبُون الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي يظن هؤلاء المنافقون أن جيوش الكفار لا تزال تحاصر المدينة مع أنهم انصرفوا ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُون فِي الْأَعْرَابِ﴾ وإن يأت الأحزاب كرة أخرى للقتال يتمنون أن لو كانوا يعيشون في البادية مع الأعراب حتى لا ينالهم أذى ولا مكروه، ليس بينهم وبين المسلمين صلة ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي يسألون عن أخباركم وما جرى لكم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَا قَاتَلُوا إِلَّا قليلاً﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت احتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلاّ قتالاً قليلاً رياءً وجبناً منهم.

وإذا كانت هذه حال المنافقين في الوقت الذي حاصرت فيه الأحزاب المدينة المنورة، فقد كان للمؤمنين في تلك الظروف الشديدة موقف آخر هو اليقين بنصر اللّه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ

الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً. وَلَمَّا رَأَى المؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ (٢١ ـ ٢٢).

فرسول اللّه كان عظيم الثقة بربه وبأنـه محقق وعده، ونـاصر دعـوته، وكان صبوراً على شدائد القتال، إن رسول اللّه هو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي قـدوة حسنة ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللّه وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب اللّه ويخاف عقابه يوم الحســاب ﴿وَذَكَرَ اللّهَ كثيراً﴾ أي وأكثر من ذكـر ربه بلسانه وقلبه، والمراد بذكر اللّه اللجوء إليه وطلب العـون منه حين الخـوف والشـدة وعند الأمن والـرخاء ﴿وَلَمَّـا رَأى المؤْمِنُـونَ الأحْـزَابَ﴾ ولمـا رأى المؤمنون جماعات الكفار تحاصرهم وتهددهم بالإبادة ﴿قالُوا: هذا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي هذا ما وعدنا اللّه ورسوله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر ﴿وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ظهـر صدق خبـر اللّه تعالى ورسـوله في النصرة والثواب، وقد كان رسول اللّه أخبرهم عند حفر الخندق بأن النصـر حليفهم ﴿وَمَا زَادَهُم إلاّ إيماناً وتسليماً﴾ وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلاّ إيماناً باللّه وتسليماً لقضائه وأمره، ويقيناً بالنصر[1].

---

(١) بينما كان المسـلمون يحفرون الخندق عرضـت للمسـلمين صخرة فكسـرت معاولهم فشكوا إلى رسول اللّه فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخر ضربة صدعها وبرقت منهـا برقـة أضاءت ما بين لابتي المدينة (أي جانبيها) حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبـر رسول اللّه وكبر المسـلمون، ثم ضربها الثانية والثالثة فكانت تبـرق وتضيء مثل الضـربة الأولى، فسأل المسـلمون رسول اللّه عن ذلك فقال: أُضيئت لي في الضربة الأولى قصور الحيرة ومدائن كسـرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها (أي غالبة). وأُضيئت لي في الضربة الثانية قصور قيصر من أرض الروم... وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. وأُضيئت لي في الضربة الثالثة قصور صنعاء.. وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا بالنصر. فاستبشـر المؤمنون، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا اللّه ورسوله من النصر..

وكيف يكون عجيباً أن ينتصر المؤمنون بفضل إيمانهم وهم قد جعلوا أرواحهم على أكفهم فداء للدعوة الإسلامية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٢٣ ـ ٢٤).

لقد كان من المؤمنين رجال صادقون عاهدوا اللّه على الثبات مع رسول اللّه لمقاتلة أعداء الدين، ونذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول اللّه ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا أو يحوزوا على النصر ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ والنحب: يأتي بمعنى النذر، أو بمعنى الموت، وقضاء النذر هو الوفاء به، والمعنى: فمنهم من وفى بنذره وعهده مع رسول اللّه من الثبات معه والجهاد في سبيل اللّه، أو منهم من استشهد في سبيل اللّه، بعضهم قُتِلَ يوم معركة بدر، وبعضهم يوم معركة أُحد[1]، وبعضهم قُتِلَ في غير ذلك من المواطن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ ومنهم من ينتظر الاستشهاد في سبيل اللّه أو النصر ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ وما غيروا ما عاهدوا اللّه عليه ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ ليجزي اللّه هؤلاء بأحسن الجزاء والثواب ﴿وَيُعَذِّبَ المنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لقد علق القرآن فعل التعذيب على مشيئة اللّه، فهو إن شاء في الدنيا ـ وقبل أن يعذبهم في الآخرة ـ تركهم على ضلالهم فماتوا على النفاق، وإن شاء لهم الهداية إلى الإيمان قبل موتهم هداهم فلم يقع عليهم العذاب في الآخرة لموتهم على الإيمان ﴿إِنَّ اللَّه كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ غفوراً

---

(١) روي أن أنس بن النضر تغيب عن قتال بدر فقال: تغيبت عن أول مشهد شهده رسول اللّه ﷺ لئن رأيت قتالاً لَيَرَيَنَّ اللّه ما أصنع، فلما كان يوم أُحُد وهُزم الناس، لقي سعد بن معاذ فقال: واللّه إني لأجد ريح الجنة فتقدم فقاتل حتى قُتل فنزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه...﴾.

حيث ستر ذنوبهم، ورحيماً حيث رحمهم ورزقهم التوبة والإيمان قبل موتهم.

ثم تعود بنا السورة إلى قصة غزوة الأحزاب لتذكر خاتمتها فتذكر أولاً ما أصاب الأحزاب من جند المشركين من خيبة أمل:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾ (٢٥).

فاللّه سبحانه يذكرنا بما نالت جموع قريش وغطفان ومن عاونهم من القبائل من هزيمة فهم قد عادوا إلى معاقلهم وقد ملأ نفوسهم الغيظ بعد أن أخفقوا كل الإخفاق ولم ينالوا أي خير، فلا هم أبادوا المسلمين واستأصلوهم كما كانوا يحلمون، ولا هم كسبوا المعركة وعادوا مثقلين بما مُنُّوا به أنفسهم من غنائم الحرب ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمؤمِنينَ الْقِتَالَ﴾ وكفى اللّه المؤمنين مشقة القتال وأخطاره بما سلط على الكفار من الريح والملائكة بما جعلهم يولون الأدبار ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾ قويًّا على تنفيذ ما يريد، عزيزاً لا يغلبه غالب.

ثم تذكر الآيات أخيراً ما أصاب يهود بني قريظة من خاتمة سيئة، فبعد انضمام بني قريظة إلى جيوش الأحزاب ونقضهم المعاهدة مع المسلمين مما هدّد المسلمين بالإبادة، أراد رسول اللّه أن يتخلص من هذا العدو الغدار الذي يجاوره في الدار فبدأ بحصار بني قريظة في اليوم الذي انسحبت فيه الأحزاب. وبعد حصار دام خمساً وعشرين ليلة استسلمت بنو قريظة وقبلت أن تنزل على حكم الرسول الذي حكّم فيهم سعد بن معاذ سيد قبيلة الأوس التي كانت حليفة لبني قريظة فَحَكَم فيهم أن يُقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسبى الذراري والنساء، وإن ما حكم به سعد بن معاذ هو نفس ما كان

ستفعله الأحزاب بالمسلمين لو انتصروا بخيانة بني قريظة. وفي هؤلاء اليهود نزلت الآيات التالية:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً. وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَم تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ (٢٦ ـ ٢٧).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَنْـزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ ظاهروهم: عاونوهم، وأهل الكتاب هم يهود بني قريظة الذين عاونوا الأحزاب فقد أنزلهم الله ﴿مِنْ صَيَاصِيهِم﴾ من قلاعهم التي كانوا يتحصنون بها مستلمين للمسلمين ﴿وَقَذَفَ في قُلُوبِهِم الرُّعْبَ﴾ وألقى الله في قلوبهم الرعب بعد أن شدّد المؤمنون عليهم الحصار بعد رحيل الأحزاب ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ أي مكن الله المؤمنين منهم فقتلوا رجالهم وأسروا نساءهم وأطفالهم ﴿وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُم وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ وملككم أرضهم ومساكنهم وأموالهم ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ أي ومكّن الله المسلمين الاستيلاء على أرض أخرى لم تطأْها أقدامهم وهي أرض خيبر لأنها أُخِذَت بعد أرض بني قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك كأرض فارس والروم.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْضَاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ فهي من الأنباء الغيبية التي تشهد بأن القرآن وحي إلّهي، لقد أنبأ القرآن عن أنباء غيبية تحققت في وقت كانت القوة العسكرية والبشرية التي جابهت النبي والمسلمين هي الأقوى والأكثر، ولكن الله أراد أن يحقق وعده وينصر دينه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ
يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ
وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ
ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

شَرح المفـردَات

أُمَتِّعكن : أعطيكنَّ متعة الطلاق من مال وثياب جبراً لوحشة الفراق.

يَقْنُت : يطيع.

تَخْضَعْنَ بالقول : لا تلنَّ القول وتُرَقِّقْنَهُ للرجال مما يغري بكنّ.

وَقَرْنَ في بيوتِكُنّ : إلزمن بيوتكن.

تبرجْنَ: التبرج إظهار الزينة وإبراز المحاسن للرجال.

الرجس : الإثم.

لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ
وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ
ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

شرح المفردات

الخاشعين : الخشوع هو التذلل والخضوع والخوف من الله.

تابع سورة الأحزاب

نشير إلى ما سبق في هذه السورة بأن النبي ﷺ هو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ولذا يقدم القرآن مثالاً عملياً وقدوة صالحة لكل قادة الأمة وأفرادها في الترفع عن المادة وملذات الحياة في سبيل رضاء الله. وهذا المثال مأخوذ من حياة النبي ﷺ الخاصة مع أزواجه، وقبل أن نذكر الأيات الكريمة في هذا الصدد نمهّد بالكلام عن أزواج النبي ﷺ وكيف كن يعشن حياتهن الخاصة.

من المعلوم أن النبي ﷺ اختار لنفسه وأهل بيته معيشة الكفاف فقد قالت عائشة زوج النبي ﷺ: «وإن كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار إن هو (أي الطعام) إلاّ التمر والماء»[١].

ويُروى عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله يبيت الليالي طاوياً[٢] هو وأهله لا يجدون عشاءً وكان أكثر خبزهم الشعير»[٣].

أما بيوت أزواج النبي فقد كانت على أبسط ما تكون فهي مبنية من الطين وجريد النخل وعلى أبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال.

لم يكن ذلك من النبي فقراً وعجزاً عن الحصول على ملذات الحياة وطيباتها، فقد فتحت له البلدان وتدفقت عليه غنائمها فكان يصرفها على المسلمين وبالأخص الفقراء منهم. ولكن نساء النبي كن نساء من البشر يستهويهن متاع الحياة الدنيا وبهرجها فلما رأين الغنائم تتدفق على المسلمين وخصوصاً غنائم بني قريظة راجعن النبي في هذه الغنائم وطلبن الاستزادة من النفقة والزينة كما يفعل غيرهن من النساء وخاصة حين يكون الزوج هو رسول الله وهو الآمر الناهي

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) طاوياً: جائعاً.
(٣) أخرجه الترمذي.

وحين تكون تحت يده أموال المسلمين يصرفها كيف يشاء، وفي وسعه أن يغدق على أهله بغير حساب. لذا قلن للنبي: بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم.

ولقد بلغ الأسى برسول الله أشده مما طالبته به نساؤه إلى حد أن احتجب عن أصحابه. روى البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله، قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً، قال: والله لأقولن شيئاً أُضحك رسولَ الله، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة (أي ابنته) سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت (١) عنقها؛ فضحك رسول الله وقال: هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ما ليس عنده! فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده ثم اعتزلهن رسول الله شهراً أو تسعةً وعشرين يوماً ثم نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا. وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٢٨ ـ ٢٩).

فالله سبحانه يقول: يا أيها النبي قل لأزواجك ناصحاً لهن: إن كنتن تردن الحياة الدنيا ورفاهيتها والتوسع في التنعم بها فأقبلن لأدفع لكن من المال متعة الطلاق بما يخفف وحشته، وأطلقكن طلاقاً لا إساءة معه. وإن كنتن تؤثرن حب الله ورسوله ونعيم الدار الآخرة وترضين بما أنتن فيه من خشونة العيش فإن الله أعدَّ لأمثالكن من المحسنات في أعمالهن أجراً

---

(١) وجأ العنق: دفعه بجمع كفه

لا يقدر قدره.

ثم بدأ رسول اللّه بتخيير عائشة فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألاّ تعجلي حتى تستشيري أبويك، قالت وما هو يا رسول اللّه؟ فتلا عليها ما نزل من القرآن في ذلك، قالت: أفيك يا رسول اللّه أستشير أبوي، بل اختار اللّه ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألاّ تخبر امرأة من نسائك. لقد طلبت عائشة ألاّ يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخيرهن رغبة ليظهر تفردها في هذا الاختيار وميزتها على بقية نسائه، وهنا نلمح إلى عظمة النبوة في رد رسول اللّه وهو يجيبها على طلبها: إن اللّه لم يبعثني مُعنتاً[1] ولا متعنتاً[2] ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني واحدة منهن عما اخترت إلاّ أخبرتها، فالرسول لا يود أن يحجب عن إحدى نسائه ما قد يعينها على الخير والتخلص من مغريات الحياة، ثم تابع الرسول تخيير نسائه جميعاً ففعلن مثل ما فعلت عائشة واخترن اللّه ورسوله والرضى بما هن عليه من شظف العيش وعدم التطلع إلى زينة الحياة الدنيا.

هذه الحادثة يسجلها القرآن ويضعها على الأسماع لتكون أمثولة للرجال والنساء للصمود أمام مغريات الحياة. فالترف يصرف الإنسان عن خالقه وعن القيم الإنسانية السامية، كما يكون داعياً للأنانية وقسوة القلب.

هذه الحادثة من أعلام النبوة، فلو كان الرسول ﷺ من طالبي السلطة أو مُدَّعياً النبوة كذباً لسار على سيرة من سبقه من الزعماء والملوك والأمراء الذين كانوا يستأثرون بالغنائم لهم ولنسائهم وحاشيتهم، هذا مع العلم أن طبيعة أكثر النساء تميل إلى البذخ والإسراف في الزينة واللباس والتباهي بها على أقرانهن، والزوج سريع التأثر بمطالب زوجته حريص على إرضائها مهما كلفه ذلك من أموال، أما بالنسبة إلى الرسول فقد اصطدمت مطالب نسائه بزيادة النفقة والزينة من الغنائم

---

(١) معنتاً: مشدداً ملزماً ما يصعب عليه أداؤه.
(٢) متعنتاً: طالب الزلة.

التي تدفقت عليه بجدار من الرفض مع ما صاحبه من غضب وهجر لهن.

وبعد ذلك يأتي نداء اللّه لنساء النبي مبيناً مكانتهن بالنسبة لغيرهن من النساء والواجب المترتب عليهن نحو ربهن وفي هذا النداء إظهار لفضلهن وعظم قدرهن عند اللّه:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً. وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ (٣٠ ـ ٣١).

فهاتان الآيتان وعظ لنساء النبي ﷺ مع عصمة اللّه لهن وطهارتهن من كل سوء، أي من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح يضاعف عقابها، فإن المعصية من العالِم ورفيع الشأن أشد قبحاً فناسب أن يضاعف جزاؤها لأن فيها الجحود والكفران بنعم اللّه عليهن بسبب قربهن من رسول اللّه وفيها إيذاء لرسول اللّه وما أعظمه جرماً عند اللّه ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ أي وكان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على اللّه ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ومن تُطع اللّه ورسوله منكن وتعمل بما أمر اللّه ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعطها اللّه ثواب عملها مثليْ ثواب عمل غيرها من سائر النساء ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كريماً﴾ وهيأنا لها في الآخرة عيشاً هنيئاً في الجنة.

ثم يبيّن القرآن حقيقة الوضع الديني والاجتماعي الذي يجب أن تسلكه نساء النبي ﷺ:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً. وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٢ ـ ٣٣).

فـالله سبحانـه يقرر أن نسـاء النبي لـن كأحـد من النساء في الفضـل والشرف، ففضلهن وشرفهن يزيد على غيـرهن من النسـاء ﴿إن اتَّقَيْتُنَّ﴾ إن اتقين الله فيما أمر به ونهى عنه، فقد أُتيحت لهن فرص لم ينلها غيرهن وهي مشاركة الرسول ﷺ في حياته والاهتداء بهديه عن كثب، وبركة نزول الوحي عليه في بيوتهن، ومن هذه الحقيقة ينبع المنهج السلوكي الذي رسمه لهن. منـه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِـالْقَوْلِ﴾ نهـاهم الله عن إلانة القـول وتـرقيقـه عنـد مخاطبة الرجال ﴿فيطمع الذي في قلبِهِ مـرض﴾ أي فيطمـع الذي في قلبـه ضعف، إما عن نفاق أو تهاون في إتيان الفـواحش، وإن القلوب المريضـة التي تتأثر بالمرأة التي تلين صوتها وتطمع فيها موجودة في كل عهد وتجاه كل امرأة ولو كانت هي زوج النبي ﷺ ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ أي قلن قولاً جميلاً حسـناً متعارفاً في الخير. فموضوع الحديث قد يطمع في المرأة فلا ينبغي أن يكـون بين المرأة والـرجل الغـريب هذر ولا غـزل ولا دعـابـة ولا مـزح كي لا يكون مدخلاً إلى شيء آخر وراءه من قريب أو بعيد.

﴿وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمنها فلا تخرجن لغير حاجة مشروعة ومثلهن في ذلك سائر نسـاء المؤمنين.

والحكمة فيها: أن ينصرفن إلى رعاية شؤون بيوتهن وتوفير وسائل الحياة المنـزلية التي هي من خصـائصهن وإلى تربيـة الأولاد. ومما أبيـح للنسـاء الخروج لأجله: الحج مع محرم، والصلاة في المسجد، وزيارة الوالدين، وعيادة المريض، وتعزية الأقارب والعلاج ونحو ذلك، ويباح للمرأة العمـل للحـاجة في الأمكنـة التي تأمن فيهـا من الفتنة،وخـروجهـا يجب أن يكـون باللباس المحتشم الذي حدده الشرع غير متطيبة ولا متزينة. أما خروج المرأة لغيـر هذه الأمـور للتسـكـع في الـطرقـات والنـوادي والمجتمعـات وإهمـال شؤون البيت فهو الذي يؤدي إلى الفسـاد والخلل في المجتمع.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ التبرج هو إظهار الزينة وإبراز المرأة محاسنها للرجال والتبختر والتكسر في المشي ولبس الثياب التي تصف جسدها أو تكشف عنه لرقتها وشفافيتها، ويشير النص القرآني إلى تبرج الجاهلية الأولى، قيل المقصود بالأولى ما بين آدم وعيسى أي التي قبل الإسلام، والجاهلية مشتقة من الجهل بمعنى: الخلو من المعرفة والطيش والسفه، وهي حالة اجتماعية ذات سلوك شائن يمكن أن توجد في أي زمان ومكان.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ فإقامة الصلاة أي أداء الصلاةالمفروضة مع مراعاة الخشوع فيها واستحضار عظمة الله وإقامة الصلاة ليست مفروضة على نساء النبي وحدهن فكل مؤمن ومؤمنة مطالب على الحتم والإلزام بإقامة الصلاة، وقد حث القرآن على إقامة الصلاة لأثرها في تربية النفس وتطهيرها من أدران الخطايا والنهي عن الفحشاء والمنكر. وإيتاء الزكاة[1] ليس مفروضاً على أزواج النبي ﷺ فقط فهي كالصلاة إحدى دعائم الإسلام الخمس مفروضة على كل مسلم ومسلمة ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وامتثلن أمر الله ورسوله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ والرجس المراد به الذنوب والآثام والفحشاء. وأهل البيت: يراد به نساء النبي وأهله مثل عليّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، والذين حُرمت عليهم الصدقة بعده وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي ويطهركم من أوضار الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً. وفي الآية إشارة لطيفة

---

(١) أطلق القرآن على المال الذي يبذل للفقراء اسم الزكاة لأمرين يتصل كلاهما بالاستعمال اللغوي لها وهي تستعمل في اللغة بمعنى النماء ومعنى الطهر، ذلك أن إيتاءها يطهر النفس من رذيلة الشح ومن الذنوب، أما النماء فلأن الزكاة تزيد من رصيد المسلم من الأعمال الصالحة وتبارك له في ماله الذي أخرجها منه.

ورعاية كريمة فاللّه بذاته يتولى تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم وهي رعاية علوية تبين لنا مدى هذا التكريم العظيم من رب العالمين لأهل بيت رسول اللّه ﷺ.

ثم يأتي التوجيه الإلّهي لنساء النبي بتدارس القرآن والانتفاع به:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بِيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (٣٤).

لفظ ﴿واذكرن﴾ يحتمل فيه عدة معانٍ، منها: واذكرن نعمة اللّه عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات اللّه والحكمة. أو بمعنى: اذكرن آيات اللّه وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ اللّه. أو بمعنى: اذكرن آيات اللّه للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهديها، وآيات اللّه هي كتابه الكريم وهو القرآن. والمراد بالحكمة سنة رسول اللّه وهي ما أوحي إلى رسول اللّه من أحكام دين اللّه ولم ينزل به قرآن. وقيل: إن الحكمة هي القرآن نفسه أيضاً لأنه يحتوي على الحكمة في الشرائع والأوامر والنواهي والعظات ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خبيراً﴾ إن اللّه كان عالماً بغوامض الأشياء فاحذرن مخالفته ومعصية رسوله.

وإذا كان هذا هو المنهج السلوكي الذي ارتضاه اللّه لنساء النبي فإن القرآن يرسم أيضاً المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون والمؤمنات:

﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ والصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ والصَّابِرِينَ والصَّابِراتِ والخَاشِعِينَ والخَاشِعَاتِ والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصدِّقَاتِ والصَّائِمينَ وَالصَّائِماتِ والحَافِظِينَ فُرُوجَهُم والحَافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (٣٥).

روي في أسباب نزول هذه الآية أن أم سلمة رضي اللّه عنها قالت

للنبي ﷺ: يا نبي الله، ما لي أسمع الرجال يُذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن فأنزل الله هذه الآية. فالله سبحانه ذكر عشر صفات من تحلى بها من الرجال والنساء، نال الأجر العظيم، وهي:

﴿إن المسْلِمِينَ وَالمسْلِمَـاتِ﴾ والإسلام هـو الانقياد لله ولمـا جاء من عنده من الشرائع والأحكام والعبادات.

﴿والمؤمِنين وَالمؤمِنَاتِ﴾ والمؤمن هو المصدق بالله ورسـوله والمـذعن لما أمر الله به ونهى عنه. وجعل النبي ﷺ أصل الإيمـان ستة أشيـاء في خبر جبريل حيث سأله عن الإيمان فقال النبي ﷺ: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله.

﴿والقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ﴾ والقانت هو العابد المطيع لله فيما أمـر به ونهى عنه ويأتي القنوت بمعنى إطالة القيام في الصلاة.

﴿والصَّادِقينَ والصَّادِقَـاتِ﴾ والصدق مـطابقة الخبـر للواقع ويكـون في القول وفي العمل جميعاً، والصدق يكون مع الله ومـع العباد، أمـا مع الله فهم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وساروا على هديه بإخلاص وصدق، والصدق علامة الإيمان كما أن الكذب من علامات النفاق.

﴿والصَّابِرينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والصبر هو حبـس النفس على ما تكره أو عما تحب وهو أنواع ثلاثة: صبر على الشدائد، وصبر في الملمات، وصبر على ما تشتهيه النفس.

فـأما الصبـر على الشدائـد فتمثله الطاعـة لله ورسولـه وما تقتضيـه من احتمال مظاهر العبودية وأعباء العبادات، وأما الصبر في الملمات فيتمثل في التجلد أمام الكوارث والمحن والفواجع التي لا تكاد تخلو منها حيـاة إنسان كموت عزيز أو اشتداد وطأة مرض أو فقد مال. وأمـا الصبر على مـا تشتهيه

النفس فيتضح في كبح الشهوة سواء أكانت شهوة نفس كالانتقام، أم كانت شهوة بطن كأكل الحرام وشرب المسكر، أو كانت شهوة فرج.

﴿والخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ﴾ والخشوع هو الإخبات والتواضع والخوف من اللّٰه والاستكانة له.

﴿وَالمتَصَدِّقِينَ والمتَصَدِّقَاتِ﴾ والمتصدق هو الذي يعطي الصدقة، والصدقة ما تصدقت به على مسكين لسد فاقته ابتغاء رضوان اللّٰه وحسن مثوبته.

﴿ والصَّائِمِينَ وَالصَّائماتِ﴾ والمراد صوم رمضان الذي فرضه اللّٰه على المسلمين ويؤجر الإنسان على صوم التطوع، والصوم يسهم في تهذيب نفس المسلم وفي غرس معاني الخير فيه.

﴿والحَافِظِينَ فُروجَهُم والحَافِظَاتِ﴾ والفرج هنا السوأة من الرجال والنساء. أي والمتعففين الممتنعين عن الزنا والحرام إلاّ عن المباح وهم أزواجهم وما يحل لهم من الإماء. ومن هنا حرم الإسلام على الرجل الخلوة بالمرأة الأجنبية، وحرم على المرأة أن تخلو بغير زوجها أو محارمها، ونهى الرجل والمرأة كليهما عن أن يتعرض أحدهما للآخر تعرض من يشتهيه فيحتال لبلوغ غرضه بقصد إشباع شهوته، وأول ذلك وأدناه النظر بشهوة ومن أجل ذلك اعتبره الرسول زنا أصغر فقال: «وزنا العين النظر».

﴿والذَّاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي الذاكرين اللّٰه كثيراً بقلوبهم وألسنتهم، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم في كل الأوقات.

هؤلاء الرجال والنساء المتصفون بتلك الصفات يعدهم اللّٰه بثوابه العظيم بقوله: ﴿أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أي هيأ اللّٰه لهم مغفرة لذنوبهم وثواباً في الآخرة على أعمالهم وهو الجنة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ
ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ
أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ
أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ
سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾
ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

شَــرح المفـردَات

الخيرة : الاختيار.

وطراً : حاجة (أي لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها).

حسيباً : كافياً للمخاوف، ومحاسباً على الأعمال.

حرج : إثم أو ضيق.

قدراً مقدوراً : قضاء محكماً وحكماً مبرماً.

بكرة وأصيلاً : أول النهار وآخره.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ
أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

تابع سورة الأحزاب

ثم يعود بنا القرآن إلى التبني الذي عالجه في الآيات السابقة، يعود ليبطله بطريق التشريع العملي بعد أن أبطله بالبرهان النظري، وكان لهذا الإلغاء قصّة:

كانت زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله من ذوات الحسب والنسب فخطبها رسول الله لمتبناه زيد بن حارثة بإلهام من الله لحكم أراد تنفيذه هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية للقضاء على نظام الطبقات لأن المجتمع العربي قبل الإسلام كان يستنكر أن يتزوج الموالي ـ وهم الرقيق المحرر ـ من النساء الشريفات ذوات الحسب والنسب. ماذا كان جواب زينب على طلب النبي ﷺ منها الزواج من زيد؟ لقد استنكفت وامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش ولأن زيداً كان بالأمس عبداً فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً﴾ (٣٦).

فأمر الله واجب أن يطاع من كل مؤمن ومؤمنة ولا مجال أن يكون لهم حق الاختيار فيما أمر به، فالاختيار لله أصلاً فليس لأحد مخالفته، ورسول الله يبلغ عن الله وينفذ الشريعة التي وكِّل إليه تنفيذها، وعصيان الله ورسوله هو الضلال البيِّن الواضح.

استجابت زينب للزواج من زيد بعد هذا الأمر الإلـهي، ولكن كانت حياته معها سلسلة من المنغصات فكانت تتعاظم عليه بنسبها وتؤذيه بلسانها فكان زيد يشكو لرسول الله ما يلقاه من الأذى ورسول الله يأمره بأن يمسك عليه زوجته فلا يطلقها، ثم ساءت الأمور إلى حد اضطر معه زيد أن يطلق زينب، فأمر الله رسوله عندئذٍ أن يتزوجها ليبطل بطريقة عملية الأحكام التي تنشأ عن

التبني في عرف العرب وهي أن زوجة المتبنَّى المطلقة لا يجوز أن يتزوجها من تبناه، وفي ذلك نزل الوحي الإلّهي:

﴿وَإِذْ تَقولُ للَّذي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي في نَفْسِكَ مَا اللَّه مُبْدِيه وَتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضى زَيدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يكونَ عَلَى المؤْمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِم إذا قَضَوْا منهن وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (٣٧).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَإِذْ تَقُول لِلَّذي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي واذكر يا محمد إذ تقول لزيد بن حارثة الذي أنعم اللَّه عليه بأن هداه للإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ وأنعمت عليه يا محمد بالعتق والحرية والتربية ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي تقول يا محمد لزيد: أمسك عليك زوجتك في عصمتك ولا تطلقها، واتق اللَّه واخشه في أمرها فإن الطلاق يشينها، أو اتق اللَّه فلا تذمها إذ تصفها بالكبرياء ﴿وتُخْفي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وما أخفاه رسول اللَّه في نفسه هو ما أعلمه اللَّه له عن طريق الوحي بأن اللَّه سيزوجه زينب بعد أن يطلقها زيد ليبطل بهذا الزواج ما كان يدين به العرب في الجاهلية من تحريم الزواج بين المتبنِّي وبين مطلقة المتبنَّى فلم يخبر النبي ﷺ زيداً بذلك استحياءً من أن يقول له: إن زوجتك التي في عصمتك ستكون زوجتي، ومن أن يقول الناس: إنه يتزوج مطلقة ابنه بالتبني فعاتبه اللَّه على إخفاء ذلك ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ فخشية النبي للناس كان مظهرها التوجس من مواجهة الناس بهذا الإلهام من اللَّه قبل أن يصبح أمراً من اللَّه وينزل به قرآناً ﴿واللَّهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ﴾ واللَّه هو الجدير بأن تخافه ولو كان في ذلك مشقة عليك فتفعل ما أباحه لك وأذن لك فيه، وتبديه ولا تخفيه.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطراً﴾ أي فلما بلغ زيد حاجته من الزواج منها،

وقيل: قضاء الوطر كناية عن الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. والمعنى: فلما طلقها زيد وانقضت عدتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي جعلناها زوجةً لك بلا عقد ومهر وشهود وهذا من خصوصيات النبي ﷺ وكان ذلك في سنة خمس من الهجرة، وكان عمر زينب خمساً وثلاثين سنة وكانت صوّامة قوّامة تقوم الليل بالعبادة وتتصدق على الفقراء، وكانت زينب تفخر على أزواج النبي فتقول:زوجكن أهاليكن، وزوجني اللّه تعالى من فوق سبع سماوات ﴿لِكَي لا يكونَ عَلَى المؤمِنينَ حَرَجٌ﴾ لكي لا يكون على المؤمنين ضيق وإثم ﴿في أزْوَاجِ أدْعِيَائِهِم﴾ في التزوج بزوجات من كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن، هذا بخلاف الابن من صلب الإنسان فإن امرأته تحرم على الأب بعد العقد عليها ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾ وكان أمر اللّه الذي يريده واقعاً لا محالة.

ويتابع القرآن عن هذا التشريع الإلّهي ووظيفةالأنبياء:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللّهُ لَهُ سُنَّةَ اللّهِ في الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. الَّذينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحداً إلاَّ اللّهَ وَكَفَى باللّهِ حَسِيباً﴾ (٣٨ ـ ٣٩).

فاللّه سبحانه ينفي الإثم عن الرسول ﷺ في زواجه بزينب ويبين أن الزواج هذا قد فرضه اللّه فما كان لمحمد أن يتخلف عن تنفيذه ﴿سُنَّةَ اللّهِ في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا حكم اللّه وما جرى به نظامه في خلقه، فلم يكن ليأمر الأنبياء بشيء وعليهم في ذلك إثم ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ وكان أمر اللّه الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ﴾ فهؤلاء الأنبياء السابقون بلغوا رسالات اللّه كما أنزلها إلى من أرسلوا إليهم ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحداً إلاَّ اللّهَ﴾ ويخافون اللّه في تركهم تبليغ رسالته ولا يخافون أحداً إلاّ اللّه فكن يا محمد مثلهم ولا تخشَ

أحـداً إلاّ اللّه ﴿وَكَفَى بِـاللَّهِ حَسِيبـاً﴾ وكفى أن يكـون اللّه كـافيـاً للنـاس لمخاوفهم ومحاسباً على أعمالهم فلا ينبغي أن يخشى غيره.

ويتابع القرآن فيعطينا حجة منطقية تزيل ما وقع في النفوس من شبهات حول الرسول ﷺ مع إقرار حقيقة أكد الزمن على صدقها:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيين وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾ (٤٠).

لما تزوج رسول اللّه زينب قال الناس: تزوج محمد امرأة ابنه فنزلت هذه الآية التي مؤداها أن زيداً ليس ابنه من صلبه حتى تحرم عليه زوجته، وبهذا ردَّ اللّه على ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم من شبهات حول هذا الزواج.

والقرآن لم يقصد بهذه الآية أن النبي لم يكن له ولد، فقد ولد له أولاد ذكور هم: إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهر، ولكنه لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً بل ماتوا صغاراً، ثم إنهم من ناحيةٍ أخرى رجاله لا رجالهم، كما قال سبحانه: ﴿أبا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم﴾.

أما قوله تعالى عن محمد: ﴿وَخَاتَم النَّبِيِّينَ﴾ فهو معجزة للقرآن. وخاتم النبيين أي خَتَمَ النبوة وتمّمها بمجيئه، وتسمية محمد خاتم الأنبياء لأن الخاتم آخر القوم.

فالقرآن حكم بأن لا نبي بعد محمد مع أنه مضى على البشرية قبل محمد آلاف السنين والأنبياء يتعاقبون فيها نبيًّا بعد نبي وكانت في كتب هؤلاء الأنبياء بشارات بأنه سيأتي أنبياء بعدهم، وكل هذا كان يدعو محمداً لأن يحجم عن قطع عهد النبوة من بعده لو كان القرآن من تأليفه لا من عند اللّه،

ولأتى ببشارة من البشارات كما جاء على لسان الأنبياء قبله.

ولقد مضى على نزول هذه الآية أربعة عشر قرناً ولم نسمع بمجيء نبي بعد محمد، وإذا كان هناك بعض أتباع الأديان لا تعترف بأن محمداً رسول اللّه حقًّا وأنه هو النبي الذي بَشَّر به الأنبياء السابقون ولا تزال تنتظر مجيء نبي فإن هذه المدة الطويلة التي مضت على نبوة محمد ولم نسمع بعدها بمجيء نبي بعده كافية في إقناع من يرتاب في نبوته، وبالأخص عند التأمل في النجاح الذي حققه محمد في أمته والعالم المحيط به حيث حوّل أمته من جاهلية جهلاء وما فيها من فرقة وتقاتل وانغماس في الفواحش والمنكرات واعتداء على حقوق الضعفاء إلى أمة متماسكة متحدة تتحلى بالفضائل النفسية والأدبية تدعو إلى الخير وتحارب الشر وتدافع عن حقوق الضعفاء وتحكم بالعدل والمساواة. دعك من أتباعه الذين بلغوا مئات الملايين، كل ذلك من أقوى الأدلة على صدق ما جاء به محمد عن ربه وأنه هو خاتم الأنبياء.

ومن الغريب أن بعض الطوائف التي خرجت عن الإسلام واختارت طريق الكفر كالقاديانية تفسر خاتم الأنبياء بأنه ليس آخرهم بل معناه أفضلهم، وتفسر الخاتم أيضاً بمعنى المهر يعني أنه يمهر الناس، وبمهره يصير الواحد نبيًّا.

والمذهب البهائي الباطل الذي يجاريه في الكفر يرى أن كلمة خاتم ليس معناها أنه آخر الأنبياء ولكن معناه الخاتم الذي تزدان به أصابع النبوة فهو ليس آخرهم ولكنه زينتهم.

فهذه تأويلات فاسدة بعيدة عن اللغة وعن الواقع يفسرون فيها آيات القرآن على مزاجهم ليروجوا لمذهبهم الباطل بين الناس.

ثم يخاطب اللّٰه المؤمنين داعياً إياهم إلى الإكثار من ذكره وتمجيده وتعظيمه لينالوا ثوابه العظيم في الآخرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَكَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُم أَجْراً كريماً﴾ (٤١ - ٤٤).

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللّٰه بقلوبكم وألسنتكم ذكراً كثيراً بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، وفي السر والعلانية ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي نزهوه عما لا يليق به ومجّدوه وعظّموه أول النهار وآخره. وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما وبسبب تنزل الملائكة فيهما كما قيل. وقيل المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر وبالتسبيح أصيلاً: صلاة العصر. أو صلاة العصر والمغرب والعشاء، والصلاة تحتوي على تسبيح اللّٰه.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلَائِكَتُهُ﴾ فالصلاة من اللّٰه للمؤمنين: الرحمة لهم والثناء عليهم عند ملائكته. والصلاة من الملائكة للمؤمنين: الدعاء والاستغفار لهم ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم اللّٰه - أيها المؤمنون - من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الضلالة إلى نور الهدى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ فاللّٰه يريد برحمته للمؤمنين إيصال الخير إليهم وتجنيبهم عذاب الآخرة ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ أي يحيّي المؤمنون بعضهم بعضاً بالسلام يوم يلقون اللّٰه في الدار الآخرة. وقيل إن الملائكة تسلم على المؤمنين عند الموت أو عند الخروج من القبور أو عند دخولهم الجنة وقيل هذه التحية بالسلام هي من اللّٰه يوم القيامة عند دخولهم

الجنة فيسلّمهم اللّه من الآفات ويبشرهم بالأمن من المخاوف ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ وهيأ اللّه لهم جزاء كريماً وهو الجنة.

ذكر اللّه وثوابه العظيم:

فاللّه سبحانه يأمر المؤمنين بالإكثار من ذكره وتسبيحه بكرة وأصيلاً ويعدهم إذا فعلوا ذلك بأن يرحمهم ويثني عليهم وتخصهم ملائكته بالدعاء والاستغفار كما أن اللّه وعد الذاكرين له كثيراً والذاكرات في هذه السورة بأن لهم ﴿مَغْفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً﴾. وَبَيَّن اللّه في القرآن بأنه يذكر المؤمنين إذا ذكروه ﴿فاذكروني أذكركم﴾ وأثنى اللّه على المؤمنين الذين لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه فقال: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهم تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ﴾ ووعد اللّه الذاكرين له كثيراً بالفلاح والفوز: ﴿واَذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُم تُفْلِحُون﴾.

وبَيَّن القرآن أن الإعراض عن ذكر اللّه يؤدي بالإنسان إلى الخسران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنوا لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم وَلاَ أولادُكم عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُون﴾.

كما وصف القرآن المعرضين عن ذكر اللّه بأنهم من حزب الشيطان: ﴿إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِم الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُم ذِكْرَ اللّهِ أُولَئك حِزْبُ الشَّيْطَانِ ألا إِنَّ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخَاسِرون﴾.

ولنستطرد قليلاً في الكلام عن ذكر اللّه وما وراءه من أبعاد وآفاق مذهلة تقربنا من اللّه وتجعلنا في قمة التسامي والسعادة النفسية.

فذكر اللّه يراد به ذكر أُلوهيته التي لا يشركه فيها أحد، وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء وقدرته التي تتناول كل ما في الكون وإنعامه على عباده بالخلق والرزق. ولذلك من الصيغ التي تذكر اللّه بها قولنا: ﴿لا إِلَه إلاّ اللّه﴾ أي لا خالق ولا محيي ولا مميت ولا رازق إلاّ اللّه. وجاء في الحديث الشريف: «وفي كل

تهليلة صدقة» أي قولنا: لا إله إلاّ الله.

وذكر الله ينبع من إيماننا بالله ومحبته وشكره على ما أنعم علينا من نعم لا تحصى، فما أحرى بنا أن نشكر الله على نعمه ونثني على إفضاله وقد جاء في الحديث الشريف: «وفي كل تحميدة صدقة» أي قولنا: الحمد لله.

وذكر الله يبعد الخوف والقلق والهمّ عن قلوبنا، فشعورنا واعتقادنا بأن الله معنا وأننا لسنا وحيدين أمام كوارث الحياة وأنه سبحانه قادر على كشف الضرّ عنا هو الذي يضفي طمأنينة علينا وينفي الخوف والقلق عنا. وقد جاء في القرآن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتطمئن قُلُوبُهم بِذِكْرِ اللَّهِ ألا بِذِكْرِ اللَّه تَطمئن القلوب﴾.

وذكر الله هو وسيلة لصحتنا النفسية، فكثير من مشاكلنا النفسية يرجع إلى شعورنا بالذنب على أعمال ارتكبناها، وهذه المشاعر تثير فينا عقداً نفسية تسبب لنا كثيراً من المتاعب.

والإسلام دعا كل إنسان أن يتوجه إلى ربه مباشرة بدون وسيط نادماً طالباً المغفرة منه فيفتح الله بابه ويمنحه عفوه ورحمته. وقد جاء في القرآن: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أو يَظْلِم نَفْسَه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِد الله غَفُوراً رَحِيماً﴾.

فشعورنا بأن الله سيغفر لنا وأنه غفور رحيم ينزع عنا الشعور بالذنب ويدخل إلى نفوسنا الطمأنينة.

وذكر الله ينبع من قلوبنا ويفيض من شعورنا عندما نتأمل جمال الطبيعة الخلاب وما يوحي به إلينا من عظمة الخالق.

فعندما نتأمل زهرة جميلة متناسقة الألوان تعبق بالرائحة الزكية، أو عندما نرتاد الجبال العالية ونشرف على الوديان السحيقة أو السهول المنبسطة ونرى ما يغطيها من أشجار ونبات مختلف الأصناف، أو عندما نرنو إلى السماء في أيام الصيف ونرى قبة السماء تتلألأ بالنجوم كالمصابيح ونرى البدر يشع فيها بسحره ونوره

الباهت، أو عند التأمل في البحار والأنهار والبحيرات وما فيها من أسماك جميلة متعددة الألوان والأشكال، أو ما على الأرض من حيوانات وحشرات وطيور وزواحف، أو عندما تصغي آذاننا إلى تغريد الطيور ونقيق الضفادع، عندما نرى ونسمع كل ذلك ينطلق لساننا بتمجيد اللّه وتسبيحه مشاركين الكون كله في ذلك التسبيح الذي أعلنه القرآن.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّموات السَّبْعُ وَالأرض وَمَنْ فيهِنَّ وَإن مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسبيحَهُم﴾ (الإسراء : ٤٤).

هذا وقد أثنى اللّه على الذين يتأملون أسرار الكون ويرون فيه يد القدرة الإلّهية المبدعة فينطلق لسانهم بذكر اللّه وتمجيده:

﴿إنَّ في خَلْقِ السَّموات وَالأرض وَاخْتِلاف اللَّيل وَالنَّهار لآياتٍ لأُولي الألباب. الذين يَذكُرُون اللّهَ قِياماً وَقُعودا وَعَلَى جُنُوبِهم وَيَتَفَكَّرُون في خَلْقِ السَّموات وَالأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَاب النَّارِ﴾.

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في فضائل وثواب ذكر اللّه نذكر منها ما يلي:

«مَثَلُ الذي يَذْكُرُ رَبَّهُ والذي لا يَذْكرهُ مَثَلُ الحيِّ والميِّت»[1].

«كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان[2]، حبيبَتان إلى الرحمٰن: سُبْحان اللّه وبحمده، سُبحان اللّه العظيم»[3].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) أي ميزان حسنات الإنسان.
(٣) رواه البخاري.

«أحب الكلام إلى اللّه تعالى أربعٌ «سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إلّه إلّا اللّه، واللّه أكبر لا يضرك بأيهن بَدَأْتَ»[١].

«من قال لا إلّه إلّا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات، كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»[٢].

«مَنْ لَزِمَ الاستغفار[٣] جعل اللّه له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همٍّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٤].

* * *

وبعد هذا الاستطراد في ذكر اللّه وثوابه العظيم نرجع إلى تفسير بقية هذه السورة فنرى الآيات التالية التي تبين حقيقة رسالة محمد، والتي تبشر المؤمنين بالثواب الكبير، وتنذر الكافرين بالعقاب مع توجيهات خاصة للنبي ﷺ:

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إِلى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً. وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللّهِ فَضْلاً كَبِيراً. وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُم وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ (٤٥ ـ ٤٨).

فاللّه سبحانه أرسل محمداً ﴿شَاهِداً﴾ على من أرسل إليهم يراقب أحوالهم ويشاهد أعمالهم، كما يشهد يوم القيامة على من صدقه من قومه وآمن به، وعلى من كفر به وكذبه ﴿وَمُبَشِّراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب وهو الجنة، والبشارة هي الخبر السار ﴿وَنَذِيراً﴾ أي محذراً الكافرين

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) الاستغفار: طلب الغفران من اللّه.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.

من وبيل العقاب يوم القيامة ﴿وداعياً إلى اللَّه﴾ أي داعياً يا محمد الناس إلى وحدانية اللَّه والتصديق بما جئت به من الدين ﴿بإذنه﴾ بأمر اللَّه إياك يا محمد بذلك ﴿وَسِرَاجاً منيراً﴾ شبه اللَّه رسوله محمداً بالسراج المنير لأنه يستضاء به في ظلمات الجهالة والغواية، ويُهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية ﴿وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُم مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ أي بشر المؤمنين بأن لهم ثواباً من اللَّه زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان ﴿وَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمنَافِقِينَ﴾ نهى اللَّه رسوله عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب معهم، وهنا تعريض لغيره من أمته لأن النبي معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه ويشيرون عليه ﴿وَدَعْ أَذَاهُم﴾ أي لا تبال بما يصدر منهم من الأذى واصبر عليه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوّض إلى اللَّه أمورك وثق به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ وكفى باللَّه ناصراً ومعيناً وحافظاً لك.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ
عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ
وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ
نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ
قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا
يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ
وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ
أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ

شرح المفردات

عِدَّة : عدة المرأة ما تعده من أيام أو قرء لتتخلص من زواج سابق وتستطيع الزواج بعدها.

تعتدُّونها : تعدُّوها.

ما ملكت يمينك : ما كان تحت يدك من الإماء (والأمة هي الرقيقة خلاف الحرة).

يَسْتنكحها : يتزوجها.

تُرْجي : تؤخر العلاقة الزوجية.

وتؤوي إليك : وتضم إليك وتضاجع.

ابتغيت : طلبت.

عَزَلْتَ : تجنبت ونحيتها جانباً.

يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴿٥١﴾ لا يحل لك النساء
من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت
يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا ﴿٥٢﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا
بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا
دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن
ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا
سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم
وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه
من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴿٥٣﴾ إن تبدوا شيئا
أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما ﴿٥٤﴾ لا جناح عليهن في آبائهن
ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن
ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على
كل شيء شهيدا ﴿٥٥﴾ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها
الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴿٥٦﴾

شرح المفردات

غير ناظرين : غير منتظرين.

إناه : نضجه.

سألتموهُنَّ متاعاً : سألتموهن حاجة ينتفع بها.

إنَّ اللَّهَ وملائكته يُصلُّونَ على النبي : الصلاة من اللَّه رحمة، ومن الملائكة دعاء واستغفار، ومن المؤمنين دعاء بالرحمة.

تابع سورة الأحزاب

ثم تعود بنا الآيات مبينة بعض الأحكام المترتبة على الطلاق قبل الاتصال الجنسي:

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنوا إذَا نَكَحْتُمُ[1] المؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُم عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ[2] تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (٤٩).

والمعنى: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله إذا عقدتم على المؤمنات بعقد الزواج، وإنما خص الله المؤمنات بالذكر تنبيهاً على أن المؤمن لا ينبغي أن يختار لنطفته إلاّ المؤمنة، وإن كان للمؤمن التزوج من كتابية: يهودية أو نصرانية ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَالَكُم عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها﴾ فليس لكم أيها المؤمنون على نسائكم عدة تستوفون عددها ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ فأعطوهن عند الطلاق ما يستمتعن به من مال أو غير ذلك من ثياب أو حلي جبراً لخاطرهن من وحشة الفراق ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ فخلوا سبيلهن إلى أهلهن تخلية بالمعروف من غير إضرار ولا إيذاء ولا مطالبة بما أعطيتموهن.

---

(١) نكح الرجل المرأة: عقد عليها بعقد الزواج، ولفظ النكاح في كتاب الله لم يرد إلاّ في العقد، ولم يستعملها بمعنى الوطء إلاّ في قوله تعالى: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ والوطء كنى عنه بالمس، وبالملامسة، وبالتغشي، وبالإفضاء، وبالمباشرة، وبالدخول، وبإتيان الحرث، وبالقربان، وبالاستمتاع، وبالرفث... وهذا من الأدب العالي الذي يعلمنا الله إياه في كتابه الكريم.

(٢) العدة فترة من الزمن لا يصح للمرأة التي دخل بها زوجها وطلقها أن تتزوج في أثنائها من غير زوجها وهذه الفترة بالنسبة للمرأة من ذوات الحيض مدتها ثلاث دورات كاملة من الحيض والطهر أما التي انقطع عنها الحيض فعدتها ثلاثة أشهر، وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة أيام.

ثم يبين القرآن بعض أحكام الزواج الخاصة بالنبي ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزواجَكَ اللَّاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمينُك مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَات خَالِـكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللَّاتي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنبي إنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المؤمنين قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِم في أَزْواجِهم وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهم لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحيماً﴾ (٥٠).

فاللّه يخاطب نبيه محمداً بقوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ أي أبحنا لك يا محمد أزواجك اللاتي هن في عصمتك لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها ﴿اللَّاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ اللاتي أعطيتهن مهورهن ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وما ملكته يدك من الإماء[1] مما غنمته في حربك مع الكفار من نسائهم ﴿وَبَنَاتِ عَمِّك وَبَنَاتِ عَمَّاتِك وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ هذه الآية أباحت لرسول اللّه الزواج من هؤلاء الأقارب إذا هاجرن معه من مكة إلى المدينة المنورة دون غيرهن ممن لم يهاجرن، والمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة، فمن هاجر حلّ له، سواء كن في صحبته أو لم يكنّ. وهذا إيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر، وقد كان المسلمون يهاجرون من مكة إلى المدينة للخلاص من اضطهاد قريش، وللقيام بشعائر دينهم بحرية ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنَّبِيِّ﴾ أي وأبحنا لك أيها النبي الزواج من امرأة مصدقة بالتوحيد إن وهبت نفسها لك بغير مهر تقرباً منك ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ إن أراد النبي أن يتزوجها بتلك الهبة بدون مهر ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ﴾ أي هذه

---

(١) الإماء جمع أمة أي المملوكة وهي خلاف المرأة الحرة.

الإباحة هي خاصة بك دون غيرك من المؤمنين، فلا ينعقد الزواج بهبة المرأة نفسها بدون مهر ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِم في أَزْوَاجِهِم وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم﴾ قد علم الله ما فرض على المؤمنين في أزواجهم وإمائهم من أحكام، وكان مما فرض الله عليهم أن لا تزوج امرأة حرّة إلاّ بولي ومهر وعقد بحضور شاهدي عدل ولا يحل لهم من النساء أكثر من أربع ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي أبحنا لك أزواجك وما ملكت يمينك من الإماء والموهوبة لكي لا يكون عليك ضيق ومشقة فيما شرعناه لك ﴿وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَحيماً﴾ وكان اللَّه غفوراً لذنوب عباده رحيماً بهم.

هذا وقد كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه في العلاقة الزوجية بالعدل فيخصص لكل زوجة دورها في المبيت إلى أن جعله اللَّه في حِلٍّ من ذلك، فقال سبحانه:

﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّن عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتيتَهُنَّ كُلُّهُنَّ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا في قُلُوبِكُم وَكَان اللَّهُ عَليماً حَليماً﴾ (٥١).

فاللَّه يخاطب النبي بقوله: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخر العلاقة الزوجية ممن تشاء من أزواجك ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تضم وتتصل بمن تشاه منهن وتبيت عندها ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّن عَزَلْتَ﴾ الابتغاء: الطلب، وعزل الشيء: نحاه عنه وأبعده. والمعنى: ومن طلبت من زوجاتك ممن أبعدتها عن القسمة وضممتها إليك ﴿فَلا جُنَاح عَلَيْكَ﴾ فلا إثم عليك ولا لوم. والخلاصة أن اللَّه سبحانه فوض الأمر إلى النبي يصنع في زوجاته ما شاء من ضم وتأخير إن شاء أن يقسم بينهن في العلاقات الزوجية قسم، وإن شاء أن يترك القَسْمَ ترك ﴿ذَلِكَ أَدْنى أن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي ذلك التفويض

إلى مشيئة النبي ﷺ أقرب لسرورهن لأنه حكم اللّه تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي يرضين كلهن بما تعاملهن من ضم وتأخير وإيواء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما في قُلُوبِكُم﴾ واللّه يعلم بكل ما تضمره قلوبكم من تذمر أو رضا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حليماً﴾ وكان اللّه واسع العلم حليماً لا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

ثم يعود الكلام إلى نساء النبي فبعد أن خيَّرهن النبي بين الدنيا وزينتها وبين اللّه ورسوله والدار الآخرة واخترن حينئذٍ اللّه ورسوله، فمكافأة لهن على ذلك حرم اللّه على رسوله التزوج بغيرهن:

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ (٥٢).

والمعنى: لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد نسائك اللاتي خيرتهن ولا أن تبدل بأزواجك اللواتي في عصمتك أزواجاً غيرهن بأن تطلقهن وتتزوج غيرهن ولو أعجبك جمالهن ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ولكن اللّه أحل لك ما تملكه يدك من الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ أي مطلعاً على كل شيء حافظاً له.

ثم يبين القرآن الآداب والأحكام الواجب التزامها مع رسول اللّه حين يكون في أحد بيوته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُم إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُم فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُم فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِين لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُم كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحي مِنْكُم وَاللَّهُ لا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُم وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُم أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ

أبداً إنَّ ذَلِكُم كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً. إنْ تُبدوا شَيْئاً أو تَخْفُوهُ فَإنَّ اللَّه كَان بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٥٣ ـ ٥٤).

فاللّه سبحانه يخاطب أصحاب النبي بقوله: يا أيها الذين صدقوا اللّه ورسوله لا تدخلوا بيوت النبي(١) إلاّ أن تُدعوا إلى طعام تطعمونه ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ أي غير منتظرين ﴿إِنَاهُ﴾ أي نضجه وإدراكه وبلوغه. فاللّه يأمر المؤمنين بأن لا يبكروا بالحضور إلى الوليمة ينتظرون صنع الطعام ونضجه ﴿إلاَّ أنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي لا تأتوا إلى بيوت النبي بقصد الطعام إلا إذا دعاكم النبي لتناول الطعام. فقد كان بعض الطفيليين يدخلون منازل النبي بغير إذن فيتحينون وقت الطعام فيدخلون إلى بيوت النبي ويشاركون أهل البيت في تناول الطعام ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُم فَادْخُلوا﴾ ولكن إذا دعاكم رسول اللّه إلى الطعام فادخلوا البيت الذي أُذن لكم بدخوله ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِروا﴾ فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم لأكله فتفرقوا وانصرفوا من منزله ﴿وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولا تمكثوا طويلاً بعد فراغكم من تناول الطعام مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحِي مِنْكُمْ﴾ إن صنيعكم هذا يؤذي النبي ويضايقه ويمنعه من قضاء كثير من أموره، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف لخلقه الرفيع ﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحي مِنَ الْحَقِّ﴾ واللّه لا يمنعه من الجهر بالحق ما يمنع المخلوقين.

فليس من السائغ أن يتطفل المسلمون على النبي ﷺ فيعمدوا إلى الذهاب إلى أحد بيوته دون إذن منه ولا دعوة عند حلول وقت الطعام. وليس مقبولاً كذلك أن يضايقوا أهل بيت النبي بالمكوث فترة طويلة في انتظار أن ينضج الطعام ولو كانوا مدعوين إليه فإن هذا يثقل على أهل البيت عادة،

---

(١) بيوت النبي: هي البيوت التي أعدها رسول اللّه لزوجاته فلما توفين ضمت إلى مسجده.

وليس من المستحسن إذا كانوا مدعوين إلى طعام أن يمكثوا فترة طويلة بعد تناوله مستأنسين بحديث بعضهم البعض فإن هذا مما يشق على أهل البيت ويحجز حريتهم وبالأخص أن البيوت في ذلك الزمن كانت صغيرة محدودة.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾ وإذا سألتم ـ أيها المؤمنون ـ نساء النبي ما ينتفع به من لوازم البيت أو الحاجات الضرورية، أو ما ينتفع به من العلم أو الفتوى في الأمور الدينية ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فاطلبوا ذلك من وراء حاجز وحجاب ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ذلكم الأمر أكثر تطهيراً لقلوبكم وقلوبهن من الريبة وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء عادة وللنساء في أمر الرجال، وأحرى بأن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل. هذه آية الحجاب، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث منها قولي لرسول اللّه: لو ضربت على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب.

﴿وَمَا كَانَ لَكُم أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ وما ينبغي لكم وما يصح أن تؤذوا رسول اللّه في أي نوع من الإيذاء ﴿وَلا أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ اي ولا يحق لكم أبداً أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته لأنهن أمهات المؤمنين بالتوقير والتعظيم ﴿إِنَّ ذَلِكُم كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعد وفاته هو إثم عظيم عند اللّه ولا ذنب أعظم منه. وسبب نزول الآية أن رجلاً قال: لئن مات محمد لأتزوجن امرأة من نسائه سماها فأنزل اللّه هذه الآية.

﴿إِنْ تُبْدُوا شَيئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إن تظهروا شيئاً أو تخفوه في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بكل شَيء عليماً﴾ فإن اللّه محيط علمه بكل شيء في الوجود لا يخفى عليه شيء.

وبعد نزول آية الحجاب قال الآباء والأبنـاء والأقارب للنبي ﷺ: ونحن أيضاً نكلم نساءك من وراء حجاب فنزلت الآية التالية:

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيداً﴾ (٥٥).

لا جناح: أي لا إثم. فالقرآن ينفي الإثم عن نساء النبي في جواز ترك الاحتجاب مع الآباء والأبناء والإخوة وأبنائهم وأبناء الأخوات، والنساء والمراد بهن المؤمنات خاصة بدليل الإضافة إلى ضميرهن، وما ملكت أيمانهم من الرقيق من رجال ونساء، وقيل من النساء فقط ﴿واتَّقِينَ اللَّهَ﴾ واخشين اللّه وٱلْزَمْنَ طاعته في الخلوة والعلانية.

وبعد أن أمر اللّه المؤمنين بالاستئذان عند دخول بيوت النبي وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً له، بيّن بعد ذلك مكانة النبي ومنزلته عند اللّه:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّها الَّذِين آمنوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٥٦).

بهذه الآية شرّف اللّه رسوله محمداً في حياته وبعد مماته وَبَيَّن للمؤمنين واجباتهم تجاه رسوله، فاللّه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ وصلاة اللّه على رسوله محمد رحمته له وحسن ثنائه عليه عند ملائكته. والصلاة من الملائكة: الدعاء والاستغفار له. والملفت للنظر أن اللّه لم يقل: والملائكة، وإنما أضافهم إلى ذاته بقوله: ﴿وَمَلاَئِكَتَهُ﴾ إشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم وهذا يستلزم تعظيم النبي بما يصل إليه من الدعاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ والصلاة من المؤمنين على النبيّ:

الدعاء له بالرحمة، وقد سئل رسول اللّه من بعض أصحابه: يا رسول اللّه قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

أما قول المؤمنين: اللهم صل على محمد، فمعناه: يا اللّه ارحم محمداً وعظمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار[1] دعوته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وتضعيف أجره ومثوبته.

وصلاة الملائكة والمؤمنين على النبي تشريفهم بذلك حيث اقتدوا باللّه في مطلق الصلاة، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم.

﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي حيّوا النبي بتحية الإسلام بأن تقولوا: السلام عليك أيها النبي، ومعنى هذه التحية: أنالك اللّه السلامة من النقائص والآفات، وأسبغ عليك الحفظ والرعاية والسلامة من كل مكروه حيًّا وميتاً وعند البعث يوم القيامة، وذكر كلمة ﴿تسليماً﴾ للتأكيد، وقيل معنى ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي انقادوا لأوامر النبي، فالسلام من التسليم وهو الانقياد.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة فضل الصلاة على النبي، فقد قال النبي ﷺ:

«من صلى عليّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلّى عليّ»[2].

«من صلّى عليّ صلاة صلى اللّه عليه بها عشراً»[3].

---

(١) إظهار: تقوية وتمكين.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ
ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ
وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ
لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟
وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ
لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ

شرح المفردات

احتملوا بُهْتَاناً : حَمَّلُوا أنفسهم أشد الكذب.

يُدْنِين : يسدلن.

جلابيبهن : جمع جلباب وهي الملاءة التي تستر بها المرأة جميع بدنها.

أدنى : أقرب.

المرجفون : المشيعون للأخبار الكاذبة.

لَنُغْرِيَنَّك بهم : لنسلطنك عليهم.

لا يجاورونك : لا يساكنونك.

أينما ثُقِفُوا : أينما وجدوا.

خلَوْا مِنْ قَبْلُ : مضوا من الأمم السابقة.

الساعة : القيامة.

ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا
﴿٦٥﴾ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا
ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا
ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ
وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا
سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ
إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾

شرح المفردات

سادتنا : الذين يتولون شؤون البلاد من الملوك والولاة.

فأضلُّونَا السبيلا : فأضلونا طرق الخير والهداية.

وجيهاً : ذا شرف ومنزلة.

سديداً : صواباً وصدقاً.

وأشفقن منها : وخفن منها.

تابع سورة الأحزاب

ثم يبيّن الله بعد ذلك مدى الإثم العظيم لمن يؤذي الله ورسوله والمؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِين يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً. وَالَّذِين يُؤْذُون المؤمنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (٥٧ ـ ٥٨).

والمراد بإيذاء الله هو فعل الإنسان ما يكرهه سبحانه من الكفر والمعاصي مجازاً لاستحالة حقيقة التأذي في حق الله، وهذا الإيذاء مثل قول اليهود: يد الله مغلولة. وقول النصارى: إن الله ثالث ثلاثة، والمسيح ابن الله. وقول المشركين: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى. وهناك نوع من الإيذاء بيّنه النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره»[1] ومعنى هذا أن بعض العرب قبل الإسلام كانوا يقولون: يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه وإنما الفاعل ذلك هو الله.

وأما إيذاء الرسول فيشمل كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال كقولهم فيه بأنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون، أو الذين طعنوا فيه حين اتخذ صفية زوجة له[2]. أما الأفعال فكان يوم أن كسرت رباعيته وشج رأسه يوم معركة أُحد.

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم.

(٢) صفية بنت زعيم بني النضير من اليهود، ولما قتل سبيت بنته صفية فأرسل النبي بلالاً فجاءه بها بعد أن كانت موضع تنازع في الغنيمة فألقى النبي عليها رداءه ليؤذنها بأنه اختارها لنفسه ثم خيرها بين الإسلام أو أن تبقى على دينها فاختارت الإسلام وأعتقها ثم تزوجها فأثارت بجمالها وحكمتها غيرة نسائه فقال بعضهن: تزوج رسول الله يهودية فآذى ذلك النبي.

وقد حكم اللّه على هؤلاء الذين يؤذون اللّه ورسوله باللعن: أي الطرد والإبعاد من رحمة اللّه، ثم جعل هذا اللعن يلازمهم في الدنيا والآخرة ليؤكد أن لا رجاء في قربهم من اللّه وسعادتهم برحمته، وليس هذا فحسب بل لهم في الآخرة عذاب يهينهم فيه بالخلود فيه وهو عذاب جهنم.

أما الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير ما عملوا وبغير سبب يستحقون بها الأذية ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً﴾ فقد حملوا أنفسهم بهتاناً، والبهتان هو أفحش الكذب وأشنعه كما أنهم اقترفوا ﴿إِثْماً مُبِيناً﴾ أي ذنباً واضحاً جليًا.

فالبهتان في حق المؤمنين والمؤمنات هو أن ينقل عنهم ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص من قدرهم وفضلهم. وممن ينطبق عليهم هذا الوصف بعض الجهلة الذين يتنقصون من قدر الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم اللّه منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر اللّه عنهم، فإن اللّه قد أخبر بأنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار، كما أثنى عليهم وحذر من إيذائهم، فليحذر كل من يتطاول عليهم بالطعن.

وقد روي عن قتادة وهو من أئمة التابعين لصحابة رسول اللّه قوله: إياكم وأذى المؤمن فإن اللّه يحوطه ويغضب له.

ولما تحدثت الآيات السابقة عن إيذاء المؤمنين ناسب أن يؤمر المؤمنات بأن يرتدين الثياب المحتشمة بما يمنع عنهن أذى الفسقة وأهل السوء:

﴿يَا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المؤمنين يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٥٩).

فاللّه سبحانه يخاطب نبيه محمداً بأن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين

بأن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ والجلابيب: جمع جلباب وهو الثوب الذي تلبسه المرأة فوق ثيابها ويستر جميع البدن ويعرف حالياً بالملاءة. ومعنى يدنين: أي يرخين هذا الثوب ويسدلنه على أجسامهن فيستر الصدر ومعظم الوجه ويلوينه فوق الجبين ويعطفنه على الأنف بحيث تظهر عينا المرأة، وقال الحسن تغطي نصف وجهها. هذه المبالغة في ستر الوجه هو عند تعرضهن للأذى من قِبَلِ الفساق، أما عند أمْن الفتنة فإن للمرأة أن تظهر وجهها وكفيها وبهذا نطقت الآية الكريمة ﴿ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وفسّر ذلك بإظهار الوجه والكفين ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أن يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ﴾ أي ذلك التستر باللباس هو أقرب أن يُعرفن بالعفة فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد بخلاف المتبرجة التي هي عرضة للمعاكسة والطمع فيها، أو أن يعرفن بأنهن حرائر ويتميزن عن الإماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفوراً رحيماً﴾ غفوراً لما سلف منهن من آثام رحيماً فلا يعاقب التائب عن ذنبه. وأسباب نزول هذه الآية أنه كانت المرأة الحرة والأمة تخرجان ليلاً لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل من غير فرق بينهن ولم يكن قد استحدثت في ذلك الزمن غرف ملحقة بالبيوت لذلك الغرض، وكان في المدينة فساق يعاكسون الإماء ويتعرضون لهن وربما تعرضوا للحرائر، فإذا أُنّب الفساق يقولون حسبناهن إماء فأُمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر فلا يطمع فيهن أحد.

فهذا التستر الذي أمر به الإسلام عند استفحال الرذيلة هو الذي يصون المرأة ويحفظ لها شرفها وكرامتها وعفتها، فاللباس الذي تلبسه المرأة في العالم الغربي والذي بدأ يتسرّب إلى العالم الإسلامي من لباس شفاف ضيق يبرز محاسن الجسم مع إبراز الأذرع والسيقان وقسمٍ من الأفخاذ مع التفنن في تسريح الشعر واستعمال أنواع العطور المثيرة كل ذلك مما يفتح باب الإغراء على مصراعيه ويحدو بالفساق وأصحاب الفواحش بأن يعتدوا على

المرأة بالمعاكسة والخطف والاغتصاب، أو يغرونها بالانحراف ويسلبونها أعزَّ ما تملك في هذه الحياة، وهذا ما يحصل حاليًا في كل دول العالم بحالات كثيرة تثير المخاوف.

وبعد أن أمر اللّه المؤمنات بالتستر والاحتشام أنذر سبحانه المنافقين والفسقة بسوء المصير إذا لم يكفوا عن إيذائهم للمؤمنين:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المنَافِقُون وَالَّذين في قُلوبهم مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُون في المدينة لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِم ثُمَّ لا يُجاورونَكَ فِيهَا إلاَّ قَليلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً. سُنَّةَ اللَّهِ في الَّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (٦٠ ـ ٦٢).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿لَئِن لَمْ يَنْتَهِ المنَافِقُونَ﴾ لئن: اللام لام القسم، والمنافقون هم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ﴿وَالَّذِين في قلوبهم مَرَضٌ﴾ وهم أصحاب الفواحش الذين كانوا يتحرشون بنساء المدينة حبًا في الفجور ﴿وَالمرجِفُونَ في المدينَةِ﴾ والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل، وقد كان هؤلاء المرجفون يخبرون الناس عن سرايا[١] المسلمين بأنهم هزموا وتارة بأنهم قتلوا. ومعنى ما سبق: أقسم إن لم يكف المنافقون والزناة وأصحاب الإشاعات والأخبار الكاذبة عن عدائهم للمسلمين ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِم﴾ هذه الجملة جواب القسم، أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل، أو لنحرضنك عليهم بحيث تضطرهم إلى الجلاء عن المدينة ﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرونَكَ فِيهَا إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي ثم لايكون لهم بقاء بجوارك في المدينة إلا

---

(١) سرايا: مفردها سرية وهي قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة وقيل هي من الخيل نحو أربعمائة سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السري النفيس.

عـدداً قليلاً منهم، أو زمناً قليلاً ريثما يتأهبون للخروج منها ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مطرودين من رحمة اللَّه ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ أينما وجدوا أسروا وأُخذوا على وجه الغلبة والقهر وقتِّلوا أبلغ قتل.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِين خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذا ما جرى به نظام اللَّه في خلقه مع الـذين نافقـوا الأنبياء من قبل، أن يسلط اللَّه عليهم أهل الإيمـان فيذلوهم ويقهروهم ويجلوهم عن ديارهم ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ ولن تجد يا محمد لطريقة اللَّه التي سنها في خلقه تغييراً.

هؤلاء هم الطابور الخامس الذي يشيع في الأمة الفساد ويبث فيها روح الهزيمة ويوهن العقيدة، هؤلاء إن لم يكفوا عن مؤامراتهم الدنيئة فهم أحرى بأن تطهر الأرض منهم وبذلك يسلم المجتمع من أضرارهم.

وبعد تهديد المنافقين والزناة ودعاة الهزيمة بسوء المصير نرى بعضهم يسأل عن القيامة وموعدها استبعاداً لحصولها فيأتي الرد عليهم واضحاً مقترناً ببيان العاقبة الوخيمة التي ستحل بالكافرين يوم القيامة:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً. إِنَّ اللَّه لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً. يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم في النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ (٦٣ ـ ٦٦).

الساعة: هي القيامة، فقد كان المشركون يسألون رسول اللَّه عن وقت قيامها استعجالاً على سبيل الاستهزاء ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن علم القيامة عند اللَّه لا يعلم وقت قيامها غيره ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ أي وما يعلمك وما يدريك بها أحد، والمعنى على

النفي ، لعل القيامة قد قَرُبَ وقتها، وفي هذا الرد تهديد ووعيد للمنكرين لها ﴿إنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكافِرِينَ﴾ إن اللّه طرد الكافرين من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُم سَعيراً﴾ وهيأ لهم في الآخرة ناراً شديدة الاتقاء ليعذبوا بها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ ماكثين في عذاب النار أبداً إلى غير نهاية ﴿لا يَجدونَ وَلِيًّا﴾ لا يجدون صاحباً أو قريباً يستنقذهم من عذاب النار ﴿وَلاَ نصيراً﴾ ولا أحد ينصرهم وينجيهم من عقاب اللّه ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُم في النَّارِ﴾ أي تقلب من ناحية إلى أخرى ليذوقوا العذاب من الناحيتين، وخصصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع للإنسان من جسده ﴿يَقُولُون: يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ يا ليتنا أطعنا اللّه في الدنيا وأطعنا رسوله محمداً فيما جاءنا به من عند اللّه لنكون من أهل الجنة.

ثم يبين القرآن أسباب الضلال الذي أوردهم هذا العذاب:

﴿وَقَالوا رَبَّنا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ (٦٧ ـ ٦٨).

لقد اعترفوا بأنهم أطاعوا سادتهم، وهم ملوكهم وولاتهم، كما أطاعوا كبراءهم وهم زعماؤهم، وطاعتهم كانت بامتثال أمرهم والاقتداء بهم، وتقليدهم تقليداً أعمى ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ أي فأبعدوهم عن طريق الحق والهدى ﴿رَبَّنَا آتهم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ هذا هو دعاء الكافرين على سادتهم وكبرائهم، أي عَذِّبهم من العذاب مثليْ عذابنا الذي تعذبنا به ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كبِيراً﴾ واطردهم من رحمتك واخزهم خزياً كبيراً بمقدار إثمهم وجرمهم.

هذا الهدي الرباني حرب على الديكتاتورية الطاغية وعبادة الشخصية التي أدت إلى إضعاف الأمة ومعاناتها ألواناً من الشقاء والتعاسة.

فكم من الملوك والأمراء والزعمـاء الذين استبـاحوا الـظلم والمنكرات وسـاروا على طريق الضـلال غير مـراعين حرمـة لدين أو ضميـر فأطـاعتهم شعوبهم طاعة عمياء فكان مصيرهم الخسـران والضياع.

فالإسلام جاء بثورة على الحكام الظالمين الضـالين ونبّه الشعـوب بأن تقف سداً أمام تصرفاتهم الرعناء وألا تطيعهم وتجاريهم في ضـلالهم، وأنه لا ينفعهم العـذر يوم القيـامة بـأنهم كانـوا أداة طيعة في أيـديهم فكلهم في العذاب سواء.

وبعد أن حذر القرآن الكافـرين من طاعـة رؤسائهم انتقـل إلى تحذيـر المؤمنين من إيذاء رسول اللّه بأي نوع من الإيذاء:

﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمنوا لا تكُونوا كَالَّذِين آذوا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّـا قَالُـوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً. يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُـوا اتَّقُوا اللَّه وَقُـولُوا قَـوْلاً سَدِيـداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (٦٩ ـ ٧١).

فـاللّه سبحانـه يخاطب المؤمنين بـأن لا يؤذوا رسول اللّه محمـداً بقول يكرهه منهم، ولا بفعل لا يحبه، ولا يكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي اللّه فرموه بعيب في جسده كذباً وباطلاً فبرأه اللّه مما نسبوه إليه ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ والوجيه عند اللّه العظيم القدر الرفيع المنزلة.

وما أُوذي به النبي ﷺ على ما رواه الرواة أنه قسّم قسـماً ـ أي نصيباً من الغنائم ـ فقال رجل هذه قسـمة ما أريد بها وجه اللّه تعالى فغضب النبي من ذلك وقال: يرحم اللّه موسى فقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر.

وأما الأذى الذي تعرض له موسى من قومـه فقد روي في ذلـك حديث

عن النبي ﷺ قوله: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلاّ من عيب في جلده إما برص وإما إدرة[1] وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر واغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر «أي دع ثوبي يا حجر» حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه الله مما يقولون»[2].

ومما آذاه قومه هو اتهامهم له عندما مات هارون وهو معه فوق الجبل بأنه قد قتله.

ثم يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ والتقوى هي أن يحذروا غضب الله وعقابه في كل ما يأتون ويذرون من الأفعال والأقوال ومن ذلك تناول سيرة النبي ﷺ بما يؤذيه وبما هو بريء منه ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ والقول السديد هو قول الصدق والحق والصواب. والله يعدهم أنهم إن فعلوا ذلك بقوله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي يوفقهم الله لصالح الأعمال، وإضافة إلى ذلك ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي ويعفُ عن ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ باتباع ما أمرا به واجتناب ما نهيا عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ فقد ظفر بالكرامة العظمى عند الله.

ثم يبيّن القرآن عظمة التكاليف الشرعية التي وضعها الله للناس:

---

(١) إدرة: انتفاخ في الخصية.

(٢) رواه البخاري.

﴿إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّموات وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٧٢).

المراد بالأمانة: الطاعة، طاعة اللّه من أمر ونهي والتكاليف الشرعية التي فرضها على الإنسان، وَشَرْعُ اللّه كله أمانة ائتمنه عليه ودعاه للمحافظة عليه وأدائه بغير إخلال بشيء من حقوقه.

لقد عرض اللّه الأمانة على السموات والأرض والجبال قبل أن يعرضها على آدم وذريته فلم تطقها، فقال لآدم: إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطقها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فما مكث آدم في الجنة إلاّ مقدار ما بين العصر إلى غروب الشمس حتى عمل بالمعصية فأُخرج منها.

وعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال هو من قبيل ضرب الأمثال، أي أنها على كبر أجرامها لو أنها بحيث يجوز تكليفها بالفرائض الشرعية لثقل عليها تحملها لما فيها من الثواب والعقاب. وقيل: يجوز أن يكون اللّه قد خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقة فخافت منها، وامتنعت عن تحملها لا امتناع استكبار وعصيان ولكن امتناع استصغار لأنفسهن، وامتناع خشية لأن العرض كان تخييراً لا إلزاماً، وحملها الإنسان ليظهر اللّه فضله على الخلائق تشريفاً له، ولقد جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بني آدم وَحَمَلْنَاهُم في البَرِّ وَالبَحْرِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾.

فما كلُف به الإنسان بلغ من عِظَمِ وثِقَلِ محمله أن عرض على أعظم ما خلق اللّه من الأجرام السماوية والأرض ﴿فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا﴾ فأعرضن

عن حملها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخِفْنَ من تحمل الأمانة ﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ أي قَبِلَ تحمّلها والقيام بها، وعبّر عن قبولها بالحمل لإبراز معنى الصعوبة في القيام بها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة ﴿إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ وصف الإنسان بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة والقيام بحقها، وبالجهل لجهله ما يسعده مع قدرته على أدائها.

ويختم اللّه هذه السورة بتحذير المنافقين والمشركين من مغبة كفرهم مع تبشير المؤمنين بحسن العاقبة:

﴿لِيُعَذِّبَ اللّهُ المنَافِقِينَ وَالمنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللّهُ عَلَى المؤمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (٧٣).

ليعذب: اللام للعاقبة، أي كان عاقبة حمل الإنسان للأمانة أن يعذب اللّه المنافقين والمشركين لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن طاعة اللّه. ﴿وَيَتُوبَ اللّهُ عَلَى المؤمِنِينَ﴾ أي يقبل اللّه توبة المؤمنين ويغفر لهم لأنهم أدوا الأمانة حقها ﴿وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ غفوراً لذنوب المؤمنين والمؤمنات رحيماً أن يعذبهم بها بعد توبتهم منها.

وهكذا تختتم هذه السورة بتحذير المنافقين والمشركين من عذاب الآخرة متوافقة مع مطلعها الذي فيه النهي عن طاعتهم.

سورة سبأ

هذه السورة من السور التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية في تقرير وحدانية الله ووجود اليوم الآخر وإثبات نبوة محمد ﷺ.

سميت هذه السورة بسورة سبأ لأن فيها قصة أهل مدينة سبأ الذين أعطاهم الله كثيراً من النعم فأبطرتهم النعمة وكذبوا رسل الله فجازاهم الله بما يجازي كل كفور بأن أرسل عليهم سيلاً جارفاً دمر السد الذي كانوا يسقون منه مزروعاتهم وجرف بالتالي بيوتهم وأشجارهم، فأجدبت أرضهم بعد خراب السد وتفرقوا بعد ذلك في البلاد المجاورة كل تفرق.

وتتحدث السورة عن بعض أنبياء بني إسرائيل الذين قاموا بواجب الشكر لله فتخص داود وسليمان بالذكر، وتذكر النعم والمعجزات التي خصهم الله بها.

وتذكر السورة أن المترفين في كل أمة أعداء الرسل وأعداء كل إصلاح لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم واعتقادهم أن ما آتاهم الله من النعم هو بسبب رضاء الله عليهم فتنفي السورة هذا الوهم الباطل.

وتذكر السورة إنكار المشركين للقرآن بأنه منزل من عند الله وإنكارهم لنبوة محمد الذي يتهمونه بالجنون وأنه يريد أن يصدهم عن دين الآباء فتأمر السورة المشركين بأن يلتزموا جادة العقل ويفكروا في أمر نبوته، وهو لم يعهد ولم يشاهد به جنون بل هو رسول من الله لهم لهدايتهم.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ
مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ
ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤
وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥
وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ

شرح المفردات

يلج في الأرض: يدخل فيها.

يَعْرُج : يصعد.

يَعْزُبُ عنه : لا يفوت ولا يغيب عن علمه.

مُعاجزين : مسابقين يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم.

رجز : أشد العذاب وأسوئه .

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ
﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ
أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ
فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

شرح المفردات

صراط : طريق.

الحميد : المحمود في جميع شؤونه.

مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّق : قطعتم وصرتم رفاتاً وتراباً.

أفترى : اختلق كذباً (الهمزة للاستفهام أصله أإفترى).

جِنَّة : جنون.

كِسَفاً : قطعاً.

منيب : راجع إلى ربه بالتوبة مطيع له.

أوِّبي معه : رجعي معه التسبيح ورددية.

وَأَلَنَّا له الحديد : جعلناه ليناً في يده كالشمع أو العجين.

سابغات : جمع سابغة وهي الدرع التي تغطي المقاتل غطاءً وافياً.

وَقَدِّر في السَّرْد : أحكم صنعتك في نسج الدروع واجعلها على قدر الحاجة.

سُورَةُ سَبَأ

ايضـــاح و دروس

تُستهل هذه السورة بالثناء على اللّه الذي لـه ما في السموات وما في الأرض:

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذي لَهُ مَا في السَّمٰوات وَمَا في الأَرْضِ وَلَـهُ الْحَمْدُ في الآخِـرَةِ وَهُوَ الحكِيمُ الخبيـرُ. يَعْلَمُ مَـا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَـا يَخْـرُجُ مِنْهَـا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيم الغَفُورُ﴾ (١ ـ ٢).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء عليه بتمجيده وتعظيمه وشكره. والحمد والشكر متقاربان والحمد أعم. فالشكر لا يقال إلاّ في مقابلة نعمة، والحمد قد يكون شكراً للنعمة وقد يكون للثناء على شخص ابتداء، فحمد اللّه هو الثناء عليه، ويكون شكراً لنعمه التي شملت كل ما في الوجود.

فاللّه لما عَلِمَ عجز خلقه عن كنه حمده حَمِدَ نفسه فقال: ﴿الحمد للّه﴾ وأمرهم أن يحمدوه بحمد موافق لحمده لأنه سبحانه ﴿لَـهُ ما في السَّمٰـوات وَمَا في الأَرضِ﴾ خلقاً وملكاً وتدبيراً ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ في الآخِرَةِ﴾ وله الثناء في الآخرة وهي دار البقاء يوم القيامة التي ينقسم فيها الناس بين منعم ومعذب جسب أعمالهم ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وهو الحكيم في تدبير خلقه، الخبير بما عملوا وبما يصلحهم.

﴿يَعْلَمُ مَـا يلجُ في الأَرضِ﴾ أي يعلم اللّه ما يـدخـل في الأرض من حبوب النبات والزواحف وما يتراكم في جوفها من أموات وما يتسرب داخلها من مياه ﴿وَمَا يخرجُ منها﴾ كما يعلم سبحانه ما يخرج من الأرض من شجر ونبات وعيون مـاء وبراكين ونفط ومعـادن مختلفة ﴿وَمَـا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَـاءِ﴾

ويعلم اللّٰه ما ينزل من السماء من أمطار وثلوج ونيازك وإشعاعات مختلفة ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي ويعلم ما يصعد في السماء من الملائكة وأرواح العباد وأعمالهم، وما يصعد فيها من أبخرة ودخان وما استحدثه الإنسان للصعود في طبقات الجو.

فالقرآن وصف علم اللّٰه الشامل بكلمات قليلة تشهد بمصدره الإلٰهي فمثل هذا الوصف لا يخطر في عقل بشر ولا هو من طبيعة تفكيره، هذا مع العلم أن أهل الأرض لو وقفوا حياتهم يرصدون ويحصون ما ذكره القرآن لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه.

ويتابع القرآن تصوير علم اللّٰه المحيط بالكون مع التأكيد على حصول القيامة:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوات وَلا فِي الأَرْضِ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣).

والساعة هنا: هي القيامة، لقد أنكر الكفار حصولها، واستعجلوا قيامها استهزاءً بها وتكذيباً ﴿قُلْ: بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قل لهم ـ أيها الرسول ـ أقسم بربي لتأتينكم، والقسم هنا توكيد لحصولها وأنها كائنة لا محالة ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ فاللّٰه يعلم ما يغيب عن حواس الناس وعقولهم، ولا يعلم مجيء القيامة أحد سواه ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لا يغيب عنه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ زنة ذرة، والذرة أصغر جزء في أي عنصر من العناصر[1] ﴿فِي السَّمٰوات وَلَا فِي الأَرْضِ﴾ أي كائناً ما كان وجود هذه الذرة سواء في السموات أو في الأرض

---

(١) قبل أن تتكشف حقائق الذرة كان الأقدمون يعرفون الذرة بأنها ما يرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة من دقيق الغبار.

﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أي ولا يغيب عن علم الله أصغر من الذرة ولا أكبر منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ إلاّ ويعلمه الله وهو مدوّن في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ يوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وَقَدَّر أن يعمله.

وقفة عند قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ﴾ في الكلام عن الذرة، وفي هذا التعبير إعجاز وسبق علمي للقرآن، فمنذ أربعة عشر قرناً عهد نزول القرآن كان الاعتقاد السائد أن الذرة هي أصغر جزء في عنصر ما وأن الذرة غير قابلة للتجزئة، وظل هذا الاعتقاد سائداً إلى القرن التاسع عشر، ومن بعدها، وخلال عشرات السنين الماضية حوّل كثير من رجال الطبيعة اهتمامهم إلى مشكلة تقسيم الذرة ووفقوا إلى ذلك ووجدوها تحتوي على الدقائق الآتية: البروتون ـ النيوترون ـ الألكترون. فكلمة (أصغر) من الذرة في الآية تنبؤ علمي بتجزئة الذرة ووجود ما هو أصغر منها.

والملفت للنظر في معرض الكلام عن الذرة قوله تعالى: ﴿فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أن خواص الذرة لأي عنصر ما في السماوات هو مثيل لما هو كائن في الأرض. وهذه حقيقة علمية، فقد اكتشف العلماء أن في الشمس التي تعتبر نجماً كسائر نجوم السماء عشرات العناصر الموجودة في الأرض مثل الهيدروجين والكربون والآزوت والأوكسجين والفوسفور وغير ذلك من العناصر وكل من هذه العناصر لها ذرات، بالإضافة إلى كواكب السماء التي تماثل في عناصرها الكوكب الأرضي.

وبعد أن بيّن القرآن مدى علم الله انتقل إلى بيان الحكمة الإلٰهية من وجود الآخرة:

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِين سَعَوْا في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِك لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ. وَيَرى الَّذِين أُوتوا العِلْمَ الذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٤ - ٦).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي ليثيب الذين صدّقوا بوحدانية اللّه ونبوة محمد وعملوا بما أمرهم اللّه ورسوله وانتهوا عما نهاهم عنه ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾ أي لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وعيش هنيء في الجنة.

﴿والذين سَعَوْا في آيَاتِنَا﴾ والذين عملوا على إبطال آيات اللّه وصد الناس عنها بادعاء أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ ظانين ومقدرين عجزنا بأنّا لا نقدر عليهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أولئك لهم أسوأ العذاب المؤلم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ قيل هم مؤمنو أهل الكتاب، وقيل هم أصحاب رسول اللّه ومن شايعهم من علماء الأمة، والآية تشمل كل ذي علم ﴿الذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ أي الذي أنزل عليك يا محمد من القرآن هو الحق الذي لا ريب فيه ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ويهدي إلى طريق اللّه الغالب كل شيء المستحق لكل ثناء.

نعم إن الذين أوتوا العلم يعلمون أن ما جاء به محمد من الدين هو الحق، فما كانت عليه العرب من تشريعات فاسدة وعقائد بالية، وما كانت عليه الأديان من تناقض واختلاف، وما جاء به الإسلام من حقائق حول الألوهية وحول ما اختلفت به الأديان، وما سنّه من عبادات تهذب الإنسان وتشريعات عادلة تتناول الأسرة والعلاقات العامة ونظام الحكم

والتصرف في الأموال كل ذلك دلائل واضحة على أن القرآن هو حق وأنه صادر من عند الله.

ثم يعرض القرآن شبهات الكفار على حصول القيامة وبعث الناس أحياء للحساب:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُم إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنكُم لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ (٧ ـ ٨).

فالذين كفروا أنكروا البعث والقيامة، وكان يقول بعضهم لبعض استهزاءً: ﴿هَلْ نَدلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون به محمداً ﷺ ﴿يُنبئكُم إذَا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يخبركم ويحدثكم بأنكم إذا متم وفرقت أجسادكم كل تفريق وصارت تراباً وحطاماً بِفِعْلِ البِلى ﴿إنكم لَفِي خَلْقٍ جَديدٍ﴾ أي إنكم لتبعثون من قبوركم أحياء وتنشأون خلقاً جديداً ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي أهو كاذب فيما نسبه إلى ربه من إحيائه للموتى ﴿أَمْ بِهِ جِنَّة﴾ ام به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله ﴿بَلِ الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالآخرة﴾ بل: أداة للإضراب تبطل المعنى الذي قبلها وترد على ما بعدها، أي ليس الأمر كما يزعمون من أن محمداً كاذب أو مجنون، بل الذين يجحدون البعث ولا يصدقون بالآخرة هم ﴿في الْعَذَابِ وَالضَّلالِ البَعِيدِ﴾ أي مصيرهم في العذاب الدائم في الآخرة وهم اليوم في الضلال البعيد عن الحق غاية البعد، وتقديم العذاب على ما يوجبه وهو الضلال للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلٓهية القادرة على كل شيء:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إلى مَا بَيْنَ أيديهم وَمَا خَلْفَهُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ

﴿عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (٩).

والمعنى: أعموا فلم ينظروا إلى ما هو أمامهم وما هو وراءهم ﴿مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ فيروا ما في السماء من كواكب ونجوم، وما في الأرض من جبال وسهول وأنهار وبحار وأصناف النبات والحيوان فيستدلوا بذلك على عِظَمِ قدرة اللّه القادرة على إحياء الموتى ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ إن يشأ اللّه يخسف بهم الأرض بأن يجعلها تغور بهم وتغيبهم فيها ﴿أَو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو يسقط اللّه عليهم قطعاً من أجرام السماء كالنيازك تهلكهم أو بقطع من النار تحرقهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ إن في ذلك لدلالة ظاهرة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ لكل عبد تائب رجاع إلى اللّه بقلبه منتفع بفكره في حجج اللّه وآياته، معترف بوحدانيته، مذعن لطاعته.

وبعد أن بيَّن القرآن أن من ينتفع بآيات اللّه هو من ينيب إلى اللّه ذكر من هؤلاء المنيبين داود عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ آتينا دَاوِدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُون بَصِيرٌ﴾ (١٠ ـ ١١).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿وَلَقد[١] آتينا دَاودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ واللّه: قد أعطينا داود مِنّا فضلاً، والفضل الذي أعطاه اللّه لداود كثير: ويشمل النبوة، وكتاب الزبور ـ المعروف بالمزامير ـ والملك والصوت الحسن ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ يا جبال رجِّعي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال: أن اللّه يخلق فيها تسبيحاً له، فيُسمع منها ما يسمع من المسبح للّه ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي وأمر اللّه الطير أن

---

(١) ولقد: اللام الداخلة على قد موطئة لقسم محذوف وقد للتوكيد.

تسبح مع داود وترجع تسبيحه إذا شرع في تسبيح اللّٰه. وتسبيح اللّٰه هو تنزيهه عن النقصان وبراءته من السوء وتقديسه وتمجيده.

فالقرآن يذكر من فضل اللّٰه على داود أنه قد بلغ من الشفافية والتجرد في عبادة اللّٰه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات فتجاوبت معه الجبال والطير في تسبيح الخالق جل وعلا، وأدرك داود هذا التسبيح وسمعه بما أعطاه اللّٰه من إشراق وصفاء روحي. هذا مع العلم أن الجبال والطير وكل شيء في الكون يسبح الخالق كما جاء في القرآن.

﴿تُسَبِّحُ له(١) السَّمٰواتُ السبعُ والأرض وَمَنْ فيهنَّ وإن منْ شيء إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه وَلكن لا تفقهون تَسبيحهم...﴾ (الإسراء: ٤٤).

وجاء في القرآن: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ النور

فإذا كان كل شيء في الكون يسبح الخالق ويمجده، فما أحرى وأجدر بالإنسان الذي كرمه اللّٰه وفضله على كثير من خلقه أن يتجاوب مع الكون وأن يكون في مقدمة الذين يسبحون الخالق ويقدسونه.

ويتابع القرآن ذكر ما خص اللّٰه به داود من المعجزات: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدُ﴾ أي جعل اللّٰه الحديد ليناً في يده كالشمع أو العجين يتصرف فيه كيف يشاء من غير إحماء بنار أو ضرب بمطرقة معجزة له ﴿أنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي اعمل دروعاً واسعة تحمي من بأس الأعداء ﴿وَقَدِّرْ في السَّرْدِ﴾ السرد: نسج حَلَق الدروع، أي أحكم نسجها بتداخل حلقاتها على مقادير متناسبة، فلا تعمل حلقاتها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدرع على

---

(١) له: أي للّٰه سبحانه.

الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها وينالَه الأذى من خلال حلقاتها. وداود أول من اتخذ الدروع حلقات[١] وكانت قبل ذلك صفائح ثقالاً، وهذا النوع من الدروع لا يعوق لابسها عن الحركة كما يعوق الدرع الذي يتكوّن من صفيحة واحدة ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ والصلاح ضد الفساد كما جعله القرآن مقابل السيئة، فالعمل الصالح هو العمل النافع الذي فيه الخير للإنسان ولمجتمعه.

تأمل كيف أن الله بعد أن أوصى داود بصنع الدروع أمره وأمر أتباعه بالعمل الصالح لخير دنياهم وآخرتهم لأن الدنيا والآخرة مترابطان في نظر الدين كل منهما تكمل الأخرى، فكما أن القوة العسكرية تحمي الأمة من الأعداء وتقيها ذل الاستعمار فكذلك الإيمان والعمل الصالح يصلح الأمة ويحول بينها وبين الفساد.

---

(١) يروى أن داود كان يتنكر ويسأل الناس عن حاله فعرض له ملك في صورة إنسان فسأله عن داود فقال: نِعْمَ العبد لولا خلة فيه، فقال: وما هي؟ فقال يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده تمت فضائله، فدعا الله فعلمه صنعة الدروع. وروي عن النبي محمد ﷺ قوله: إن داود كان لا يأكل إلاّ من عمل يده.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ
مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ
كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟
فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ
وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ

شرح المفردات

غُدُوُّها شهر : أي سير الريح من الصباح إلى الزوال مسيرة شهر للسائر المجد.

رَوَاحها شهر : أي سيرها من الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.

أَسَلْنَا : أذبنا.

عين القطر : عين النحاس المذاب.

يَزِغ : يعدل.

مَحَارِيبَ : قصور ومساجد.

جفان : جمع جفنة وهي القصعة التي يؤكل فيها.

الجواب : الحياض الكبيرة.

قُدورٍ رَاسِيَاتٍ : آنية يطبخ فيها ثابتة على المواقد لعظمها.

دابة الأرض : سوسة تأكل الخشب تسمى الأرضة.

مِنسأته : عصاه.

جنتان : بستانان.

﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم
بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ
وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

شرح المفردات

فأعرضوا : مالوا عن شكر الله وكذبوا رسله.

العرم : اسم للسد أو للسيل أو للمطر الشديد.

أُكُلٍ خَمْطٍ : كل نبت مرّ حامض تعافه النفس.

أثل : شجر يشبه شجر الطرفاء.

سِدْر : شجر النبق.

قرى ظاهرة : قرى متواصلة من اليمن إلى الشام.

قدّرنا فيها السير : حددنا مسافات السير بينها بمراحل متقاربة لا يحتاج المسافر إلى زاد.

فجعلناهم أحاديث : أي صيرهم الله أحاديث للناس يعتبر بها.

مَزَّقْنَاهم كُلَّ مُمَزَّق : فرقناهم في البلاد كل تفريق.

صبَّار : المبالغ في الصبر أي الذي يصبر عن المعاصي.

صدَّق عليهم ظنه : حقق عليهم ظنه.

من سُلْطَانٍ : من تسلط عليهم بالوسوسة والإغراء.

تابع سورة سبأ

وبعد الكلام عن داود عليه السلام تتحدث الآيات عن ابنه سليمان وما خصه الله به من معجزات:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١٢ ـ ١٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي وسخر الله لسليمان الريح تجري بأمره فتنقله مع جنوده إلى حيث يشاء من البلدان، فتقطع في سيرها من الصباح إلى الظهر المسافة التي يقطعها السائر المجد في سيره مدة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ وتسير به الريح من الظهر إلى الغروب مسيرة شهر، أي أن الريح تقطع بسليمان في يوم المدة التي يقطعها السائر في شهرين.

أما كيفية تنقل سليمان مع جنوده، سواء أكان جالساً على بساط أو مركب كما ذكر بعض المفسرين، فهذا مما لم يشر إليه القرآن، وعلى هذا فلا يحسن أن نحدّد نوع المركوب الذي يسير بواسطة الريح الذي كان ينقل سليمان وجنوده. وتسخير الريح لسليمان هو من المعجزات التي خصه الله بها، واليوم قد وفق الله الإنسان بعد جهود مريرة إلى تسخير الريح في تنقلاته فاخترع الطائرة النفاثة التي تنقله إلى أقاصي المعمورة في أيام كان في الماضي يقطعها في أشهر.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي وجعل الله له النحاس الذائب يسيل من

عين كأنه عين ماء ﴿وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي وسخر الله لسليمان من الجن من يعمل له البنايات وغيرها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره تعالى الجن أن يطيعوا سليمان ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهِمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ ومن يعدل من الجن عن أمر الله فيمتنع عن طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي يذيقه الله سبحانه عذاب نار جهنم الموقدة في الآخرة، وقيل ذلك في الدنيا وذلك أن الله وكّل بالجن ملكاً بيده سوط من نار فمن استعصى عن أمر سليمان ضربه الملك بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه تعذيباً له. ﴿يَعْمَلُون لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ محاريب: جمع محراب، ويطلق على صدر البيت، والمسجد، والقصر، والبناء الحسن المرتفع، وكان مما عمل الجن لسليمان بيت المقدس ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ كما عمل الجن لسليمان تماثيل من نحاس ورخام وزجاج للحيوانات والطيور وغيرها ﴿وَجِفَانٍ﴾ جفان: جمع جفنة وهي القصعة التي يؤكل فيها ﴿كَالجَوَابِ﴾ والجوابي: جمع جابية وهي الحوض الكبير، أي أن الجن عملت لسليمان الآنية الكبيرة التي يوضع فيها الطعام وتكفي لعشرات الناس وهي من الكبر والضخامة كالحياض الكبيرة التي يجبى فيها الماء. ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ وكذلك عمل الجن لسليمان أواني للطبخ ثابتات على قواعدها وأماكنها لا تتحول ولا تتحرك لكبرها وعظمها ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾ اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه.

والشكر على ثلاثة أنواع: شكر القلب وهو الإقرار بالنعمة بأنها من الله مقرونة بالحب والامتنان، وشكر الجوارح وذلك باستعمالها في طاعة الله وتقواه، وشكر اللسان ويكون بالثناء على الله. ووفاء شكر الله صعب لا يوفق له إلا القليل من الناس ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وقد روي عن ابن عباس قوله: الشكور: من يشكر على أحواله كلها. أي في السراء والضراء، والغنى والفقر، والصحة والمرض.

وبعد أن بيَّن اللّٰه مدى ملك سليمان بيّن بعد ذلك أنه لم ينج من الموت وأن الموت مآل كل إنسان:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموْتَ مَا دَلَّهُم عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون الغَيْبَ مَا لَبِثُوا في العَذَابِ المُهِينِ﴾ (١٤).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموتَ﴾ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت ﴿مَا دَلَّهُم عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ أي ما دل الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي السوسة ويطلق عليها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ فلما سقط سليمان عن عصاه ميتاً ﴿تَبينَتِ الجِنُّ أنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون الغَيْبَ﴾ عندئذٍ علم الجن بموت سليمان، وانكشف لهم أن لو كانوا يعلمون ما يغيب عنهم ﴿مَا لَبِثُوا في العَذَابِ المهينِ﴾ ما لبثوا في العذاب الشاق من تسخير سليمان لهم في أشق الأعمال.

وتوضيح ذلك أن داود عليه السلام أسس مسجد بيت المقدس وقبل وفاته أوصى سليمان في إتمام بناء المسجد فأمر سليمان الجن به. ثم لما أحس سليمان بدنو أجله قال لأهله لا تخبروهم بموتي حتى يتم بناء المسجد. وكان من عادة سليمان أن يقوم بعبادة ربه متكئاً على عصاه، وتوفي سليمان وهو متكىء على عصاه وبقي كذلك زمناً ما والجن مسخرة بالعمل ظانين أن سليمان حي إلى أن تم بناء المسجد. ثم إن السوس دب في عصا سليمان فنخرته فانكسرت وسقط سليمان على الأرض، عندئذٍ علم الجن

بموت سليمان. وقد تكون السوسة بدأت نخرها في العصا في حياة سليمان وتابعت نخرها بعد وفاته إلى حين اهترائها وانكسارها.

وبعد أن بيّن اللّه حال الشاكرين لنعمه مثل داود وسليمان، بيّن بعد ذلك حال الكافرين لنعمه وهم قوم سبأ.

وسبأ هي أرض باليمن مدينتها مأرب، وسميت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبى السبي من ملوك العرب وأدخل إلى اليمن السبايا، وذكر بعض الإخباريين أنه بنى مدينة سبأ وسد مأرب، وقيل إن السد بُني على يد بلقيس ملكة سبأ.

وقد بني سد مأرب في مضيق بين جبلين وبُني في عرضه سور عظيم عُرِف بسد مأرب أو بسد العرم وبين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحته وما يحيط به من سفوح وجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء فأصبحت بعد بناء السد غياضاً وبساتين تجود بالثمر الكثير على سفحي الجبلين، وهي المعبر عنها بالجنتين، الجنة اليمنى والجنة اليسرى.

ثم لما كذّب قوم سبأ الرسل سلّط اللّه عليهم فاراً وقيل جُرذاً يسمى الخلد فثقب السد من أسفله مما سبب في انهياره وفاض السيل جارفاً كل مزروعاتهم وبيوتهم، وأتى على أرزاقهم. وقيل إن الذي كسر السد سيل كثير ملأ الوادي.

ويرى بعض المؤرخين العرب أن السد تهدم نحو القرن السادس للميلاد وقيل في القرن الخامس.

ولقد تحدث القرآن عن قوم سبأ وسد مأرب بقوله:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِم آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُم وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَروا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ﴾ (١٥ ـ ١٧).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِم آيَةٌ﴾ أقسم: قد كان لأهل سبأ في مسكنهم باليمن علامة تدل على أن من بطر النعمة سلبه اللّٰه إياها وبدله بها بؤساً وشقاءً ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يمينٍ وَشِمالٍ﴾ وليس المراد بستانين فحسب وإنما أراد مجموعتين من البساتين: مجموعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها، وكانت كل واحدة من المجموعتين في تقاربها كأنها جنة واحدة ﴿كُلوا مِن رِزْقِ رَبِّكم﴾ الذي يرزقكم من تلك الجنتين ﴿وَاشكروا لَهُ﴾ واشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم من رزقه ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي كريمة التربة، حسنة الهواء، رغدة النعم، سليمة من الهوام والحشرات والزواحف الضارة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ ورب غفور لذنوبكم إن أنتم عبدتموه وحده وأطعتموه ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن عبادة اللّٰه وحده وعن شكره على ما أنعم به عليهم وعبدوا الشمس وهذا ما ذكره القرآن على لسان الهدهد عن وضع سبأ عندما قال لسليمان: ﴿وَجَدْتُها وَقَوْمَهَا يَسْجُدونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ﴾ (النحل: ٢٤).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ﴾ أي فاطلق اللّٰه عليهم السيل الجارف، فحطم السد وخربه فأتلف مزروعاتهم ودمر مبانيهم. وفي معنى العرم جملة أقوال: الماء الغزير الشديد. أو اسم للوادي الذي كان يأتي السيل منه. أو اسم للسد ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بجنتيهم جَنَّتَيْن﴾ وبدلهم اللّٰه بجنتيهم المثمرتين

جنتين ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي صاحبتي نبت مر تعافه النفس ﴿وَأَثْلٍ﴾ وهو شجر الطرفاء، وقيل شجر يشبهه، أغصانه كثيرة التعقد، وثمره حب أحمر لا يؤكل ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر هو شجر النبق وهو نوعان: بري لا ينتفع به وله ثمر عفص لا يؤكل، ونوع له ثمر فيه حلاوة، ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، فبينما كان شجرهم من خير الشجر إذ صيّره الله من شر الشجر جزاء أعمالهم. ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أي هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم الذي خرّب جناتهم هو جزاء منا على كفرهم وتكذيبهم رسلنا ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي وما نجازي هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفر.

ويتابع القرآن الكلام عن قوم سبأ:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُم فَجَعَلْنَاهُم أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٨ - ١٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي وجعل الله بين بلاد سبأ وبين القرى التي بارك فيها وهي: الشام والأردن وفلسطين ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ قرى متصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين أهلها ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ وجعلنا هذه القرى على قدر معلوم من المسافة، فكانت نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين بحيث أن المسافر باكراً يصل ظهراً إلى قرية وإذا تابع سيره ظهراً يبيت في أخرى لا يحتاج إلى زاد وماء ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمنِينَ﴾ سيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً، وقدم

القرآن ذكر الليالي لأنها مظنة الخوف ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ هذا الدعاء فيه بطر بالنعمة، فإنهم لما سئموا أطيب العيش وأسهله طلبوا الكد والتعب وسألوا ربهم أن يجعل بينهم وبين مقصدهم إلى الشام أو بيت المقدس صحارى وأراضي مقفرة لا ماء فيها فلا يحتاجون للمبيت والتزود من قرية بل يعدوا الجمال الخاصة بالسفر ويهيئوا الزاد للمسافات البعيدة، وهذا لا يكون إلاّ للأغنياء، وذلك ليتطاولوا ويفتخروا على الفقراء منهم، فعجل الله إجابة دعائهم بتخريب تلك القرى المتوسطة التي كانوا يبيتون فيها ويتزودون منها ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيب الرسل والبطر بالنعمة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي صيرهم الله أحاديث للناس يتحدث بأخبارهم ويعتبر بعاقبتهم ويضرب الأمثال بهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي وفرقناهم تفريقاً اتخذه الناس مضرب المثل، فيقال: تفرق القوم أيادي سبأ، وأيدي سبأ، واليد هنا: الطريق، أي فرقتهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سبأ في جهات مختلفة، فلحقت كل قبيلة منهم بجهة، فمنهم غسان لحق بالشام، والأوس والخزرج بيثرب، والأزد بعُمان، وخزاعة بتهامة، وآل خزيمة بالعراق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في ذلك علامات يتعظ بها كل صبار عن المعاصي، ملتزم طاعة ربه شكور لنعمه.

ثم يبين القرآن بأن ما أصاب قوم سبأ من شقاء سببه اتباع الشيطان:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِم إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ المؤمنين. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾ (٢٠ ـ ٢١).

فإبليس صدَّق على قوم سبأ ظنه أي حقق عليهم ما توقع من إغوائهم وهناك قراءة «صَدَقَ» بتخفيف الدال أي صدق في ظنه. فإبليس قال في بني

آدم حين أخرجه اللّٰه من الجنة: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهم مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهم وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أَيْمَانِهم وَعَنْ شَمَائِلِهم وَلا تَجِدُ أكثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧).

لقد ظن إبليس بقوم سبأ أنهم يطيعونه في معصية اللّٰه فصدق ظنه فيهم حين أطاعوه وعصوا ربهم ﴿إلَّا فَرِيقاً مِنَ المؤمنين﴾ فإنهم ثبتوا على طاعة اللّٰه ومخالفة إبليس ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها أو قوة يخضعهم بها ﴿إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّن هُوَ في شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي ولكن ابتليناهم بوسوسة الشيطان ليظهر من يؤمن بالآخرة وما فيها من جزاء وحساب ممن هو في شك وريبة من وقوعها ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ﴾ وربك ـ أيها النبي ـ على كل شيء رقيب مهيمن يرعاه ويصونه.

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ
الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ
رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ
أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ
لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ

شرح المفردات

حفيظ : رقيب مهيمن.

شرك : شراكة.

ظهير : معين.

فُزِّع عن قلوبهم : أزيل عنها الفزع والخوف.

الفَتَّاح : القاضي والحاكم.

يرجع : يرد.

ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ
إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ
أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى
قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

شرح المفردات

مَكْر الليل والنهار : خداعكم لنا بالليل والنهار.

أَسَرُّوا الندامة : أخفوا الندم أو أظهروه.

الأغلال : القيود.

مُتْرَفُوهَا : المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة.

وَيَقْدِر : ويضيق.

تابع سورة سبأ

ثم يبين القرآن للمشركين تفاهة عبادتهم للأصنام وبطلان ما كانوا يعتقدون أنها شريكة لله أو شفيعة لهم عنده:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوات وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾ (٢٢ - ٢٣).

فالله سبحانه يقول توبيخاً للمشركين: ﴿قُلِ ادْعُوا الذين زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ادعوا أصنامكم الذين زعمتم أنها آلهة من دون الله لتكشف عنكم الضر أو لتجلب لكم النفع، وهم لا يجيبونكم لأنهم ﴿لا يَمْلِكونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمٰوات وَلا في الأرضِ﴾ أي ليس لأصنامهم قدرة على خير ولا شرّ، ولا على جلب نفع أو دفع ضر، لأنهم لا يملكون وزن ذرة سواء أكانت في السموات أو في الأرض ﴿وَمَا لهم فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ أي ولا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ﴾ وليس لله سبحانه من تلك الآلهة التي يعبدونها من دونه من يعينه على خلق شيء ولا على حفظه.

﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي لعظمته سبحانه وجلاله لا يجترىء أحد من الملائكة والنبيين أن يشفع عنده سبحانه في شيء إلّا بعد إذنه له في الشفاعة، وهؤلاء لا يشفعون إلّا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين، وهذا ردٌّ على المشركين الذين زعموا أن أصنامهم تشفع لهم ﴿حتَّى إذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي فإذا أذن الله للذين ارتضاهم أن يشفعوا

فزعوا لسماع الإذن لهم لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أُذن لهم من تقصير، حتى إذا جلي عن قلوبهم وكشف الفزع عنهم ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم﴾ أي قالوا للملائكة أو قال بعضهم لبعض: ماذا أمر اللّه به؟ فتقول الملائكة: ﴿قَالوا: الحقَّ وَهُوَ العَليُّ الكبيرُ﴾ أي قالوا: قال اللّه قول الحق وهو وحده صاحب العلو والكبرياء فله أن يحكم في عباده بما يشاء ويفعل ما يريد.

ثم يقدم القرآن الحجة تلو الحجة على استحقاق اللّه وحده للعبادة وعلى بطلان عبادة الأصنام:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكم مِنَ السَّموات وَالأرْض قُل اللّهُ وَإنَّا أوْ إيَّاكم لَعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبينٍ. قُلْ لا تُسْألُونَ عَمَّا أجْرَمْنَا ولا نُسْألُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحقِّ وَهُوَ الفَتَّاحُ العَليمُ. قُل أرُوني الذينَ ألْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ، كَلاَّ بَلْ هُوَ اللّهُ العَزيزُ الحكيمُ﴾ (٢٤ - ٢٧).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقكم مِنَ السَّماءِ وَالأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي يرزقكم من السماء بإنزال المطر وأشعة الشمس وبدونهما تنعدم الحياة على الأرض، ومن الذي يرزقكم من الأرض من نبات وثمر ولحوم الأنعام لتقتاتوا بها. وإنما أمر اللّه النبي أن يسأل الكفار لتقوم الحجة عليهم بأن الذي يرزق الناس من السماء والأرض هو المستحق للعبادة لا آلهتهم من الأصنام التي لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولذا كان الجواب: ﴿قُل اللّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد إن اللّه هو الرزاق وهو وحده الجدير بالعبادة من دون آلهتكم، ويضيف القرآن قوله: ﴿وَإنَّا أوْ إيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أوْ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ أي أن واحداً من الفريقين: المؤمنين أو المشركين هو على هدى أو في ضلال ظاهر. ثم يترك القرآن تحديد المهتدي والضال

منهما ليثير في المشركين التفكر في أمرهم في هدوء لا يشينه تعصب ولا رغبة في الجدال العقيم، وفي هذا نقد مبطن لضلالهم وهو أبلغ من الرد عليهم صراحة، وبديهي أن من عبد الله وحده كان مهتدياً ومن عبد غيره كان ضالاً، ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي قل يا محمد للمشركين لا تؤاخذون على ما ارتكبنا من إجرام ولا نؤاخذ نحن بما اقترفتموه من أعمال، ومن المعلوم أن المسلمين كانوا أبعد الناس عن الإجرام وكان سلوك المشركين هو الإجرام بعينه حيث كانوا يضطهدون المسلمين ويعذبونهم. فهذا الأسلوب في الجدال أحرى أن يؤثر فيهم ويدعوهم إلى مراجعة النفس والانسياق إلى وازع الضمير والحق.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة ثم يحكم بيننا ويفصل بالحق ﴿وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ﴾ وهو الحاكم الذي يحكم عن علم ومعرفة بين أهل الحق والباطل ﴿قُلْ أروني الَّذِين أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي قل يا محمد للمشركين: عرفوني على أصنامكم التي جعلتموها شركاء لله هل شاركت في خلق شيء؟ فبينوا ما هو ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ العَزِيزُ الحكيمُ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم فليس لله نظير ولا شريك بل هو الله الواحد القوي الغالب الحكيم في تدبير خلقه.

ثم يبين القرآن بأن الله أرسل محمداً لهداية البشرية جمعاء:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون. وَيَقُولونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين. قُل لَكُم مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرونَ عَنْهُ سَاعَةً ولا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٨ ـ ٣٠).

فالله سبحانه يقول: وما أرسلناك يا محمد إلى قومك خاصة ولكن أرسلناك للناس جميعاً، مبشراً من أطاعك وأطاع الله بنعيم الجنة ومنذراً من

عصاك وعصى اللّه بعذاب النار في جهنم.

إن عموم رسالة محمد واضحة جلية إلى حد أن أكثر الآيات في القرآن لم توجه إلى العرب خاصة وكل ما فيه موجه إلى الناس كافة، بحيث أن تالي القرآن من أية ملة كان لا يشعر بأن هذا القرآن نزل بين ظهراني أمة غير أمته.

ورسالة محمد تختلف عن رسالة الأنبياء قبله، فكل نبي أرسله اللّه إلى قومه خاصة، فموسى أرسله اللّه إلى بني إسرائيل وكذلك عيسى، ثم أراد اللّه أن يختم عهد النبوات فأرسل محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وخصه بشريعة تامة توافق تطور الأمم وتصلح لكل زمان ومكان، هذه الخصوصية التي استأثر بها محمد يجهلها كثير من الناس كما قال سبحانه: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾.

نعم إن اكثر الناس من غير المسلمين يجهلون عموم رسالة محمد ويجهلون بالأحرى مبادىء الإسلام وأصوله الخالدة، بل في أذهانهم صورة مشوهة عنه بسبب الشبه والأباطيل التي روجها أعداء الإسلام فيه، هذا من جهة ومن جهةٍ أخرى سوء حال كثير من المسلمين الذين لم يتخلقوا بأخلاقه ولم يسيروا على هداه بل تلقوا الإسلام وراثة بدون عقيدة ولا فهم.

ولكن اليوم بانتشار الثقافة الإسلامية في العالم بدأت تظهر حقائق الإسلام جلية للأعين وبدأ الكثيرون من أتباع الأديان الأخرى يدخلون في الإسلام بعد أن رأوا فيه ضالتهم المنشودة.

وإذا كان النبي ﷺ بشر المطيعين للّه بالثواب العظيم في الآخرة وأنذر العاصين بالعذاب الأليم، فإن المشركين الذين أنكروا الآخرة وما فيها من جزاء على الأعمال خاطبوا النبي والمسلمين: ﴿وَيَقُولُونَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنتُم صَادِقِين﴾ اي متى هذا الوعد الذي وعدتمونا بـه من أننا نـدخل النـار وتدخلون الجنة إن كنتم صادقين في وعدكم به ﴿قُل لَكُم مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ قـل لهم يا محمد: لكم ميعاد يوم معلوم وهو يوم القيامة ﴿لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يؤخر ساعة لرجاء أحد ولا يقدم ساعة لرغبة أحد بل له أجل معين.

ثم يـذكر القـرآن ما يكـون من حوار يـوم القيامـة بين المـستضعفين من الكفار وبين رؤسائهم الذين أضلوهم:

﴿وَقَالَ الَّذِين كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القرآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِم يَرْجِعُ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الذين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَـوْلا أَنْتُم لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَـالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَـرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُـوا أَنَحْنُ صَـدَدْنَـاكُم عَنِ الهُـدَى بَعْـدَ إِذْ جَـاءَكُم بَـلْ كُنْتُم مُجْرِمِينَ﴾ (٣١ ـ ٣٢).

فاللّه سبحانه يحكي عما كان من إنكار الكافرين للكتب الإلّهية المنزلة فهم يقولون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا القُرآنِ وَلا بِـالَّذِي بَيْنَ يَـدَيْهِ﴾ أي أنهم قـالوا بأنهم لن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند اللّه، ولن يؤمنوا بالكتب المنزلة قبله كالتوراة والإنجيـل ولا فيما تـأمر بـه هذه الكتب وتـدعو إليـه ﴿وَلَوْ تَـرَى إِذِ الـظَّالِمُونَ مَـوْقُوفُـونَ عِنْدَ رَبِّهِم﴾ أي ولـو تـرى يـا محمـد هؤلاء الـظالمين المنكرين للقرآن والبعث والجـزاء في موقف الحســاب وهم محبوســون بين يدي ربهم. وجواب «لو» ومفعول «ترى» محذوفان والتقدير: لرأيت العجب في موقفهم. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ القَوْلَ﴾ أي حين يردُّ بعضهم إلى بعض القول ويتحاورون ﴿يَقُولُ الَّذِين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذين اسْتَكْبَرُوا﴾ أي يقول المستضعفون للمستعلين عليهم من رؤسائهم الذين كانوا يتبعونهم في الغي

والضلال ﴿لَوْلا أَنتُم لَكنَّا مُؤمنينَ﴾ لولا أنتم ـ بتسلطكم علينا ـ لكنا مؤمنين بالله وآياته، قالوا ذلك غير وجلين منهم بعد أن سقطت كل الفوارق الزائفة بينهم وأصبحوا سواء في موقف الحساب ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِين اسْتُضْعِفُوا﴾ مجيبين عليهم ومستنكرين لما قالوه ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُم عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ أي أنحن منعناكم عن الهدى بعد أن جاءكم من عند الله، لا، بل أنتم منعتم أنفسكم عنه ﴿بَلْ كُنْتُم مُجْرِمِينَ﴾ في حق أنفسكم حين آثرتم الضلالة على الهدى.

ويتابع القرآن فيذكر رد المستضعفين على الرؤساء مبيناً مدى حسرة الفريقين عند مرأى العذاب الذي ينتظرهم:

﴿وَقَالَ الَّذِين اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِين اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِين كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣).

فالمستضعفون يقولون لرؤسائهم المستعلين عليهم: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ المكر: هو الخديعة والحيلة، أي بل خداعكم لنا في الليل والنهار أوقعنا في التهلكة وصدّنا عن الإيمان ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أن نكفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي حين كنتم تطلبون منا أن نكفر بالله ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً﴾ ونجعل له شركاء وأمثالاً في الألوهية ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي أخفى كل منهم الندم والحسرة على ما فعله في الدنيا من الكفر والمعاصي مخافة أن يعيره الآخر، وقيل: أسرّوا الندامة بمعنى أظهروها، ولفظة أسرّوا هي من الأضداد، تكون مرة بمعنى الإخفاء ومرة بمعنى الإظهار ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لما عاينوا عذاب الله الذي أعده لهم ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ في أَعْنَاقِ الَّذِين كَفَرُوا﴾ أي وجعل الله أغلالاً

من حديد في أعناق هؤلاء الكافرين زيادة في تعذيبهم وإذلالهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إلَّا مَا كانوا يَعْمَلُونَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى النفي، أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها من الكفر والإجرام.

فالمستكبرون لهم ذنبهم وعليهم مسؤولية إضلال الآخرين، والمستضعفون لهم ذنبهم باتباعهم رؤساءهم الضالين لا يعفيهم من المسؤولية أنهم مستضعفون، لقد كرمهم الله بالعقل والحرية فتنازلوا عنها ورضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيداً مستذلين لرؤسائهم الذين أضلوهم فاستحقوا العذاب جميعاً، وهكذا يطلق القرآن دعوة التحرير من تبعية الرؤساء الظالمين الضالين ويدعو إلى عدم الانصياع لهم مهما عظمت التضحيات، فكل إنسان مسؤول عن عمله يوم القيامة، لا يعفيه من ذنبه أنه أطاع رؤساءه فأضلوه.

ثم يبين القرآن بعد ذلك بأن المترفين هم أعداء الرسل في كل عصر:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كافِرونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤ ـ ٣٦).

فالله سبحانه يقول بأنه ما أرسل رسولاً إلى أهل قرية يدعوهم إلى الحق والهدى إلّا قال المترفون من أهلها للرسل: إنا بما جئتم به من الدين مكذبون.

فالمترفون هم الذين أبطرتهم النعمة وهم المتنعمون المتوسعون في ملاذ الدنيا وشهواتها، فهم أعداء كل إصلاح، وهم خصوم الحق يقفون ضده، فلا يستجيبون لدعوة الرسل الذين يرسلهم الله للإصلاح والهداية لأن في اتباع الرسل تنازلاً عن ترفهم لصالح الطبقة المحرومة، والرسالات الإلهية هي ضد الترف المفرط، وضد الامتيازات الباطلة التي تخولهم

استغلال الغير لمآربهم الشخصية.

ثم يكشف القرآن عن أوهامهم الباطلة: ﴿وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَموالاً وَأَولاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فالمترفون قالوا للمؤمنين: إن اللّٰه فضلنا عليكم بكثرة المال والولد وذلك يدل على رضا اللّٰه على ما نحن عليه، ولو لم يكن اللّٰه عنا راضياً لما أعطانا هذا، وما نحن بمعذبين في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، وهذا ادعاء باطل، ولذا يأتي الجواب: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي قل يا محمد إن اللّٰه يوسع الرزق على من يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيق الرزق على من يشاء. فهو سبحانه قد يبسط الرزق ويوسعه على الكافر والعاصي استدراجاً له وإمهالاً ليزداد سوءاً وبطراً وبهذا يتضاعف رصيده من الإثم ثم يأتي عقاب اللّٰه عظيماً، وقد يعجل اللّٰه له العذاب في الدنيا بالإضافة إلى عذاب الآخرة. هذا وقد يصيب اللّٰه المؤمن بالفقر ليمتحن صبره على الحرمان وثقته بربه واطمئنانه إلى ما قَسَمَ اللّٰه له، وبهذا يحظى المؤمن بثواب اللّٰه ورضوانه عليه.

فليس مجرد كثرة الرزق لدى إنسان دليلاً على أن اللّٰه خصه بكرامته ورضاه، كما أن تقتير الرزق على إنسان ليس دليل نقمة من اللّٰه عليه، فاللّٰه يعطي المال الكثير لمن يحب من عباده ولمن لا يحب، ويفقر من يشاء منهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حكمة اللّٰه في بسط الرزق لهم والحرمان منه.

وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧
وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨
قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم
مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ
يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ
أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم
مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ
لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢ وَإِذَا تُتۡلَىٰ
عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ
يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ
يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ

شرح المفردات

تُقَرِّبكم عندنا زُلفى : تدنيكم منا وتجعلكم موضع عطفنا ورعايتنا.

يبسط الرزق : يوسعه.

يُخلفه : يرد عليهم من المال ما ذهب منه.

يَصُدُّكم : يصرفكم.

إفكٌ مفترى : كذب مختلق.

وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾
۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ
مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ
وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ
وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟
فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ
بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

شرح المفردات

كان نكيري : إنكاري عليهم بالعقوبة والهلاك.

من جِنَّة : من جنون.

فلا فَوْتَ : فلا مهرب ولا نجاة من العذاب.

التناوش : تناول الإيمان والتوبة.

وَيَقْذِفُونَ بالغيب : يرجمون بالظنون التي لا أساس لها.

بأشياعهم : بأمثالهم من الكفار.

مريب : أي في قلق في النفس وعدم طمأنينتها.

تابع سورة سبأ

ثم ينفي القرآن أن تكون كثرة المال والولد دليلاً على رضاء الله على الإنسان بل الذي يقربه من ربه هو إيمانه وعمله الصالح :

﴿وَمَا أَمْوالُكُم وَلاَ أولادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُم عِنْدَنَا زُلْفَى إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ في الغُرُفَاتِ آمِنُونَ . وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ شيء فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٧ ـ ٣٩) .

فالقرآن ينفي أن يكون المال أو الولد يقرب الإنسان من الله ﴿زُلْفَى﴾ أي قربة تدنيهم من الله وتجعلهم موضع عطفه ورعايته ﴿إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالحاً﴾ أي إن الذي يقربكم ـ أيها الناس ـ من الله هو الإيمان والعمل الصالح ، فتقربكم أموالكم إلى ربكم بإعطاء الزكاة والصدقة للمستحقين لها، وتقربكم أولادكم إلى ربكم بتعليمهم الخير، وتربيتهم على الصلاح والتقوى وأداء شعائر الله وفرائضه ﴿أُولَئِكَ لَهُم جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ فأولئك أي المتصفون بالإيمان والعمل الصالح يجازون على أعمالهم أضعاف ما عملوا من الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُم في الغُرُفَاتِ آمِنونَ﴾ أي وهم في غرفات الجنات آمنون من عذاب الله ومن المكاره ﴿وَالَّذين يَسْعَوْنَ في آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ والذين يعملون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والطعن بآيات القرآن ظانين أنهم يعجزون الله فلا يقدر عليهم ﴿أُولَئِكَ في العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ هؤلاء ستحضرهم ملائكة العذاب إلى جهنم يوم القيامة ﴿قُلْ: إنَّما رَبِّي يَبْسُط الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدر له﴾ أي قل أيها النبي : إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ويضيق عليه. وكلمة العباد المضافة لمشيئة الله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ

﴿عِبَادِهِ﴾ تشعر بأن المراد بها المؤمنون بينما في الآية السابقة كانت الصيغة فقط ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فنعيم الآخرة لا ينافي التنعم في الدنيا من الطيبات التي أباحها الله، فالصالحون قد يغدق الله عليهم الأرزاق كما يغدقها على غيرهم ﴿وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم من شيء من أموالكم في سبيل الله وفيما أمركم به فإنه سبحانه يرده عليكم ويعوضه إما في الدنيا فيكون بالبدل منه، وإما في الآخرة فيكون بالثواب على ما أنفقتم. وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً»[1] ﴿وَهُوَ خير الرازقين﴾ وهو سبحانه خير من يرزق، وهو يرزق من يشاء بغير حساب.

ثم يصور القرآن مشهداً من مشاهد القيامة حيث يؤنب الله الكفار على عبادتهم غيره:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلمَلاَئِكَةِ: أَهؤلاءِ إِيَّاكم كَانُوا يَعْبُدونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ. فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِين ظَلَموا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ التي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبونَ﴾ (٤٠ ـ ٤٢).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَميعاً﴾ أي واذكر ـ أيها النبي ـ يوم يجمع الله يوم القيامة العابدين والمعبودين من دون الله ﴿ثمّ يَقُولُ للملائكة: أهؤلاءِ إِيَّاكم كانوا يَعْبدُونَ﴾ أي ثم يقول الله للملائكة أمام من كانوا يعبدونهم: أهؤلاء المشركون الذين كانوا يعبدونكم من دوني، وفي خطاب الله للملائكة على مسمع من المشركين تقريع للمشركين وتبكيت

(١) رواه مسلم.

لهم على عبادتهم الملائكة ﴿قَالُوا سُبْحانَكَ﴾ قالت الملائكة: تعاليت ربنا وتقدست وتنزهت من أن يكون معك إلـه وشريك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِم﴾ أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونخلص له العبادة لا نتخذ ولياً غيرك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدون الجِنَّ﴾ العبادة هنا مراد بها الطاعة، والجن: هم الشياطين. فالشياطين زينوا للكفار عبادة الملائكة فأطاعوهم في ذلك فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم. وقيل إن حيّاً من أحياء العرب يقال لهم بنو مُليح كانوا يعبدون الجن ويزعمون أن الجن تتراءى لهم وأنهم بنات الله ﴿أكثرُهُم بهم مُؤْمِنُونَ﴾ أي أكثرهم بالجن مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلاَ ضرّاً﴾ أي الأمر في ذلك اليوم ـ أي يوم الحساب ـ لله وحده فلا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم بعضاً لا بشفاعة ونجاة ولا دفع ضر من عذاب وهلاك ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِين ظَلَمُوا﴾ ويقول الله للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ التي كُنْتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتم بها في الدنيا فها أنتم قد وردتموها، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

ثم تحكي لنا آيات القرآن تكذيب المشركين بنبوة محمد وللوحي الذي أنزله الله عليه:

﴿وَإذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أن يَصُدَّكُم عَمَّا كَان يَعْبُدُ آباؤُكُم وَقَالُوا مَا هَذَا إلاَّ إفْكٌ مُفْتَرى وَقَالَ الَّذين كَفروا لِلحقِّ لَمَّا جَاءَهُم إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٤٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا قُرئت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة على أنها حق من عند الله ﴿قَالـوا: مَا هَذَا إلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤكم﴾ أي قالوا: لا تتبعوا

محمداً فما هو إلاّ رجل يريد أن يصرفكم ويمنعكم عما كان يعبد آباؤكم.

ولكن هذا وحده لا يكفي فإن مجرد أنه يخالف ما كان عليه الآباء ليس طعناً ترتاح له كل النفوس لذا أضافوا إلى هذا الطعن ادعاء آخر يمس أمانة النبي ﷺ ويطعن بنبوته وهو: ﴿وَقَالوا: مَا هَذَا إلاَّ إفْكٌ مُفْتَرى﴾ أي ما هذا الذي تقرأه علينا يا محمد من القرآن إلاّ كذب مختلق على اللّه. ثم مضوا يصفون القرآن: ﴿وَقَالَ الَّذين كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الحق: المراد به هو القرآن الكريم، ووصف المشركين للقرآن بأنه سحر هو إقرار منهم بتأثيره في النفوس بما اشتمل عليه من المعاني الفائقة وفصاحة الكلام، ومن المعروف أن العرب كانوا فرسان البلاغة في الأدب والشعر والخطابة ينبىء عن ذلك ما وصلنا من شعرهم ونثرهم وخطبهم في العصر الجاهلي قبل الإسلام، لذا لما سمع القرآن فصحاؤهم وبلغاؤهم انبهروا من بلاغته ونظمه وتأثيره في النفوس فوصفه زعماء الشرك بأنه ﴿سحر مبين﴾ أي سحر واضح ظاهر. وهذا إقرار منهم بأن القرآنَ يعلو على كلام الناس وفوق مستواهم. هذا مع العلم أن السحر يكون في الأشياء المرئية لا في الأشياء السمعية التي تستتبع فكراً وتأملاً، فوصفهم للقرآن بأنه سحر هو اعتراف ضمني منهم بأن القرآن ليس من كلام البشر لأنه لم يعهد في صناعة الكلام وجود السحر.

ثم يبين القرآن وَهَنَ الحجة التي يعتمد عليها المشركون في اتخاذهم شركاء للّه مع إنذارهم بالعذاب:

﴿وَمَا آتَيْنَاهم مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أرْسَلْنَا إلَيْهم قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ. وَكَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم وَمَا بَلَغُوا مِعْشَار مَا آتينَاهُم فَكَذَّبُوا رُسُلي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٤، ٤٥).

فاللّه يذكر بأنه ما أنزل على العرب من كتب يقرأونها ويتدارسونها

ويهتدون بها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِم قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ وما أرسل الله إليهم قبلك يا محمد من نبي يحذرهم عاقبة كفرهم. إذن فما هو المصدر الذي استقى منه المشركون عقائدهم وشعائرهم الباطلة؟ وما هي الدلائل والبراهين التي تشهد بصحتها؟ ومن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذي يرشد إلى صحة الإشراك بالله؟ لا شيء من ذلك كله سوى تقليد الآباء، وعلى هذا فليس لتكذيبهم بنبوة محمد حجة بل على العكس فقد رأوا من دلائل نبوته الشيء الكثير.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ وكذب الذين سبقوهم من الأمم رسل الله ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ ما آتيناهم﴾ وما بلغ كفار مكة عُشْر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من قوة وغنى وطول عمر وتمكين في الأرض ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلي فَكَيْفَ كَانَ نكيرِ[1]﴾ وحين كذبوا رسل الله جاءهم إنكار الله عليهم بالعقاب والتدمير والإهلاك فليحذر كفار مكة أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الظالمة المكذبة لرسل الله.

وبعد تحذير كفار مكة وإنذارهم بالعذاب يقدم القرآن هذا المنهج الفكري للوصول إلى حقيقة نبوة محمد:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تتفكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديدٍ﴾ (٤٦).

فالله سبحانه يقول: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُوموا لِلَّهِ﴾ وليس المراد بالقيام لله الذي هو خلاف القعود، ولكن المراد القيام بطلب الحق والنهوض فيه بالهمة والفكرة الصائبة. والمعنى: قل لهم يا محمد إني أنصحكم بخصلة واحدة وهي أن تقوموا بطلب الحق لوجه الله ﴿مثنى

---

(١) نكير: يقال نكرت على فلان وأنكرت إذا فعلت به فعلاً يردعه، والنكير تغيير المنكر بعقوبة فاعلة.

وَفُرادى﴾ أي متفرقين: اثنين اثنين، أو واحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ ثم تتفكروا في أمر محمد وما جاء به من الدين تفكراً يؤدي للمعرفة الحقة ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِنْ جِنَّةٍ﴾ جنّة: أي جنون، أي ما بصاحبكم محمد من جنون حينما قام بأمر النبوة، وعبّر القرآن عن محمد بصاحبهم لأنهم كانوا أدرى الناس بعشرته ورجاحة عقله وأمانته وصدقه ونزاهته.

هذا الأسلوب الفكري من قيامهم اثنين اثنين، ومناقشة أمر نبوة محمد بحوار هادىء يوصل الإنسان إلى الرأي الصائب، والحقيقة الخالصة في شأنه، والتفكر فرادى بالأمر بين المرء ونفسه بدون ضغط أو تأثير جانبي يجعل له استقلالاً فكرياً وحرية في الرأي يصل بواسطتهما إلى نتيجة ترتاح إليها النفس ويقتنع بها العقل.

فهذا الأسلوب الفكري هو نوع من تقصي الحقائق يحول دون الانجراف في تيار الجماعة التي تتكوّن من كثير من الناس يغلب عليهم طابع الغوغائية وينقادون غريزياً لأهوائهم وعاداتهم وتقاليدهم انقياداً أعمى بدون روية ولا فكر.

فالأمر الذي قام به محمد من أنه رسول من عند الله لا يتصدى للقيام به إلاّ رجلان: إما مجنون مخبول العقل لا يبالي بافتضاح أمره إذا أعياه الدليل وطولب بالبرهان على صحة نبوته، وإما عاقل راجح الرأي لا يدعيه إلاّ بعد أن ثبت له بالبرهان والحجة صدق نبوته، وإلاّ فما يجدي على العاقل إدعاء النبوة وليس عنده بينة ولا برهان، وما يجدي عليه المخاطرة بأمر لا بد أن ينكشف صدقه من كذبه عاجلاً أم آجلاً.

هذا وقد علم عقلاء العرب أن محمداً ليس به مسٌّ من جنون، فقد كان أرجح العرب عقلاً، وأرزنهم حلماً، وأصوبهم رأياً، وأنزههم نفساً، ثم إنهم

رأوا في القرآن الذي جاءهم به كلاماً يعلو على كلام البشر، يرشدهم إلى مكارم الأخلاق، وينهاهم عن الفواحش والمنكرات ويصحح عقائدهم الباطلة، وتشريعاتهم الجائرة، فهل من يقوم بهذه الأمور به مس من جنون؟

ثم يبين القرآن الحقيقة في شأن محمد: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فمحمد ليس به جنون، وما هو إلاّ نذير للكافرين يخوفهم عاقبة كفرهم بعذاب مخيف مقبل عليهم إن لم يصدقوا به ويتبعوا دينه.

ثم يأمر الله رسوله محمداً بأن يقدم للمشركين هذه الحقائق حول أهداف رسالته:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الغُيُوبِ. قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ. قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٤٧ - ٥٠).

هذه الآيات المتتالية ذات الوقع الخاص على النفس تستهل بلفظة (قل) وهي تشهد بمصدرها الإلهي، فلو كان القرآن من تأليف محمد لكان الأسلوب يختلف كلياً عن أسلوب القرآن. فمحمد كان ينقل حرفياً ما يوحى إليه من ربه، ولم يبتدع كلاماً وينسبه زوراً وبهتاناً إلى ربه كما يعتقد بعض أتباع الديانات الأخرى.

فالله سبحانه يقول: ﴿قُل مَا سَأَلْتُكم مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل يا محمد ما أسألكم أجراً ألبتة على دعوتي إياكم إلى الهدى ﴿فَهُوَ لَكُم﴾ والمراد نفي الأجر أصلاً كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً فخذه. وقيل معنى: ﴿فهو لكم﴾ أي ثمرته وثوابه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما ثوابي على دعوتكم للإيمان بالله والعمل بطاعته إلاّ على الله وحده ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ والله على حقيقة ما أقول مطلع، يعلم صدقي، وشهيد على غير ذلك من الأشياء كلها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي قل يا محمد إن ربي يلقي وينزل الحق ـ وهو الوحي ـ على من يجتبيه من عباده، أو يرمي بالحق على الباطل فيصرعه[١] ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي أن الله عالم بما غاب وخفي عن الخلق. ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ والحق يراد به القرآن والإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي هلك الباطل والشرك هلاكاً بالمرة بحيث لم يبق منه شيء لا بداية ولا إعادة.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي قل لهم يا محمد: إن انحرفت عن الحق فإنما ضرر ذلك عائد على نفسي ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ وإن اهتديت واستقمت على الحق فهو بفضل وحي الله الذي أوحاه إليّ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ إن ربي سميع لما أقول لكم قريب من كل متكلم يسمع كل ما ينطق به.

وأخيراً تختتم السورة بتصوير حال المشركين يوم القيامة وقد بانت لهم الحقيقة ساطعة فيريدون الرجوع عن خطأهم للنجاة من العذاب:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ. وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ. وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ. وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين من قومك حين فزعوا من معاينة عذاب الله يوم القيامة وجواب (لو)

---

(١) وقد جاء في القرآن: ﴿وقل جاء الحق وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾

محذوف تقديره: لرأيت أمراً فظيعاً ﴿فَلا فَوْتَ﴾ فلا مهرب لهم ولا نجاة ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وأخذهم الله بعذابه من موضع قريب، لأنهم حيث كانوا فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ﴿وَقَالوا: آمَنَّا بِهِ﴾ أي قالوا: صدقنا بأن القرآن كلام الله وبنبوة محمد قالوا ذلك وقت نزول العذاب بهم ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التناوش: هو التناول، أي وأنى لهم تناول الإيمان من مكان بعيد عن محله إذ هم في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيدة عن الآخرة ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي والحال أنهم عندما كانوا في الدنيا جحدوا أن القرآن منزل من عند الله، وجحدوا نبوة محمد ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي يرمون بالظن الباطل، ويتكلمون عن الحياة الآخرة بما لا يعرفون رجماً بالغيب، فيقولون: لا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار، ويقولون في القرآن أقوالاً باطلة من أنه سحر وشعر، ويقولون في محمد بأنه ساحر وشاعر وكاهن ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من مكان بعيد عن الصواب ليس فيه مستند لظنهم الباطل، فالعرب تقول لكل من يتكلم بما لا يعرف: يقذف ويرجم بالغيب على جهة التمثيل لمن يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد ولا مجال للنظر في لحوقه. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُم وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وفُصِلَ بينهم وبين ما يشتهون من إيمان ينفعهم أو رجوع إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا صالحاً ﴿كما فُعِل بِأَشْيَاعِهِم مِنْ قَبْلُ﴾ كما فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ﴿إِنَّهم كَانوا في شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ إنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا في شك من نزول العذاب الذي نزل بهم، وقد وصف الشك بأنه مريب للتأكيد، فالشك المريب هو أقوى ما يكون من الشك.

وهكذا تختتم هذه السورة بمشهد من مشاهد القيامة تثبت القضية التي تركز عليها السورة وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والحساب والجزاء على الأعمال.

سُورَةُ فَاطِرٍ

سميت هذه السورة بسورة فاطر لذكر هذا اللفظ في وصف قدرة اللّه، فهو سبحانه فاطر السموات والأرض أي مُبْدِئُهما ومبدعهما، كما أنه سبحانه خلق الملائكة وجعلهم أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وهو سبحانه يملك خزائن الرحمة. فمن شملته رحمة اللّه فلا أحد يستطيع منعها، ومن حجبها عنه فلا مرسل لها من بعده.

وتطلب السورة من الناس أن يذكروا نِعَمَ اللّه عليهم ليشكروها وتحذرهم من وساوس الشيطان التي تقودهم إلى عذاب النار.

ثم تعرض السورة بعض مظاهر القدرة الإلّهية، فاللّه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقي به بلداً ميتاً فيحيا بأنواع النبات والثمر، ومن أحيا الأرض يُحْيي الأموات للحساب والجزاء، كما أنه سبحانه خلق الإنسان من تراب ثم جعل منه الذكر والأنثى لبقاء النوع، وأنه سبحانه سخّر البحر المالح والعذب لحياة الإنسان ومنهما يأكل لحماً طريًّا. كما أنه سبحانه سخّر الشمس والقمر وأدخل الليل في النهار والنهار في الليل.

ومن دلائل القدرة الإلهية أنه سبحانه يخرج بالماء الثمرات المختلفة الألوان، كما أن اختلاف الألوان يظهر في الجبال والدواب، هذه الأمور يدرك أسرارها العلماء فتعتريهم خشية اللّه عندما تتكشف لهم حقائقها ومدى إبداع الصنعة الإلّهية فيها.

وتعد هذه السورة، بالثواب الجزيل، الذين يداومون على قراءة القرآن وإقامة الصلاة والإنفاق على المحتاجين الفقراء.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ
أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا
مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ
كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ
وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ

شرح المفردات

فَاطِرِ السموات والأرض : خالقهما ومبدعهما ومُبدِئهما .

ما يفتحِ الله : ما يرسل الله .

فأنّى تؤفكون : فكيف تصرفون عن توحيد الله .

تغُرّنكم الحياة الدنيا : تخدعنكم بزينتها وشهواتها .

الغَرور : ما يخدع ، كالشيطان وغيره .

مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ
فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا
بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ
فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ
وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ
﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ
مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

شَرح المفرَدات

فلا تذهب نَفْسُك عليهم حسرات : فلا تهلك نفسك عليهم غمًّا وحزناً لكفرهم.

فتثير سحاباً : تحركه وتهيجه.

النشور : بعث الموتى من القبور أحياء للجزاء.

الكَلِمُ الطيب : كلمة التوحيد وذكر الله وحمده وتنزيهه عن السوء.

يبور : يفسد ويبطل.

وما يُعَمَّر من مُعَمَّر : وما يزاد في عمر طويل العمر.

سُورَةُ فَاطِرٍ

ايضــاح و دروس

تستهل هذه السـورة بالثنـاء على الله الذي شمـل الناس والمخلوقـات برحمته وفضله:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. مَا يَفْتَحِ اللَّهُ للنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (١ - ٢).

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) الحمد: نقيض الذم، والحمد لله هو الثناء عليه بتمجيده وتعظيمه، لقد حمد الله نفسه تعظيماً لنفسه، وتعليماً لخلقه كيفية الثناء عليه، وحكمة افتتاح الحمد بهذه السورة هو أن فيها تفصيلاً للنعم الدينية والدنيوية ﴿فَاطِرِ السَّموات وَالأَرْض﴾ أي مبدئهما وخالقهما على غير مثال سبق ﴿جَاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً﴾ أي خالق الملائكة وسائط بينه وبين رسله من البشر يبلّغون أقوامهم رسالات الله بواسطة الوحي ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ وهؤلاء الملائكة أصحاب أجنحة: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة ومنهم له أربعة[1] ﴿يَزِيدُ في الخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يزيد في خلق الأجنحة وفي غير ذلك من خلقه ما تقتضيه مشيئته، والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول في القامة، واعتدال في الصورة وحصافة في العقل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله لا يعجزه شيء وهو عظيم القدرة على كل شيء.

فالإشارة إلى زيادة عدد الأجنحة إيماء للقدرة في سرعة تنفيذ أوامر الله

---

(١) وقيل المراد بالأجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة.

وتبليغ رسالته إلى من يشاء من خلقه، كما يفيد أن الملائكة تتفاوت أقدارهم عند الله، وقد روي أن النبي ﷺ رأى المَلَك جبريل عليه السلام وله ستمائة جناح[١].

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ استعير لفظ يفتح للإرسال والإعطاء إشارة إلى أن الرحمة التي يفتحها الله للناس شيء عزيز شأنه أن يوضع في خزائن وهو يفتحها لمن يشاء من خلقه، وأتى بالرحمة نكرة لتعم كل رحمة دنيوية وأخروية. ومن آثار رحمة الله: نعمة الرزق، والصحة، والمال، والذرية، وغير ذلك من النعم التي لا تحصى ﴿فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي إذا أعطى الله رحمته من يشاء من عباده فلا يستطيع أحد منعها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وإذا منع الله أثراً من آثار رحمته عن أحد فلا يستطيع غيره سبحانه أن يعطيه له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو القوي الغالب، الحكيم الذي يعطي خلقه ما يشاء عن حكمة وعلم.

«ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يحصيها عدّ، يجدها الإنسان في نفسه ومشاعره، ويجدها فيما حوله وحيثما كان، وما من نعمة تتجرد من رحمة الله حتى تنقلب إلى نقمة، وما من محنة تحفّها رحمة الله حتى تكون هي بذاتها نعمة، ولا ضيق مع رحمة الله ولو كان صاحبها في غياهب السجون أو في أعطاف المرض، أو في الفقر المدقع، فمن داخل النفس إذا لامستها رحمة الله تتفجر ينابيع السعادة والطمأنينة.

المال والولد والصحة والجاه تصبح مصادر قلق وتعب ونكد إذا أمسك الله عنها رحمته، فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها الطمأنينة والراحة

---

(١) رواه مسلم.

والسعادة»(١). ورحمة الله وجدها أنبياء الله وعباده الصالحون وهم في أصعب المواقف وأشدها خطورة فكانت رحمة الله لهم غياثاً من كل مكروه صادفوه.

وقد أوضح الله في القرآن بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يريد الحصول على رحمة الله فقال سبحانه: ﴿وَرَحمتي وَسِعَت كُلَّ شيء فَسأكتُبُهَا لِلّذين يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاةَ وَالذين هُمْ بآياتنا يُؤمنون﴾ الأعراف: ١٥٦ ﴿لولا تَسْتَغفرون اللَّهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُون﴾ النمل: ٤٦ ﴿إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ المحسِنين﴾ الأعراف: ٥٦ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُون﴾ الحجرات: ١٠.

وبعد الكلام عن رحمة الله يتوجه خطاب الله إلى الناس جميعاً وبالأخص إلى المشركين الذين كذبوا بنبوة محمد ﷺ:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّه الغَرُورُ﴾ (٣ ـ ٥).

فالله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اذكروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم﴾ ونعم الله كثيرة على الإنسان: كالعقل والسمع والبصر والكلام والأطراف وغير ذلك من النعم التي لا تحصى، والمراد بذكر النعمة الثناء على خالقها والاعتراف بفضلها، وحفظها من الكفران والمعاصي، وطاعة الله فيها. ثم نفى الله أن يكون في الوجود إله غيره فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ وهو استفهام تقرير، أي لا خالق غيره سبحانه ﴿يَرْزُقكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ﴾ والرزق هو ما ينتفع منه، فالرزق من السماء هو المطر الذي فيه حياة الكائنات،

(١) عن كتاب (في ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب باختصار وتصرف.

والرزق من الأرض هو ما يخرج منها من نبات وحب وثمر يقتات الناس به ﴿لا إلَه إلاَّ هُوَ﴾ فلا إلَه غيره، ولا خالق غيره، ولا رازق غيره ﴿فَأَنَّى تُؤفَكُونَ﴾ أفك: صرف عن، أو كذب. والمعنى: من أي وجه تصرفون عن توحيد اللّه وتشركون به غيره من الآلهة، أو من أين يقع لكم التكذيب بوحدانية اللّه ﴿وَإن يُكذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وإن يكذبك يا محمد قومك بما جئت به من الدين فالرسل الذين سبقوك قد لاقوا من التكذيب من قومهم مثل ما تلاقيه من قومك، وهذه مواساة للنبي ﷺ لما يلاقيه من أذى من قومه ﴿وإلى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وإلى اللّه تصير الأمور فيجازي كلاً بما يستحقه من ثواب وعقاب.

﴿يَا أيها النَّاسُ إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ﴾ هذا وعظ للمكذبين للنبي ﷺ مخبراً لهم أن البعث يوم القيامة والثواب والعقاب هو حق متحقق الحصول، أو أن ما وعدهم اللّه من نزول العذاب فيهم في الدنيا هو حق جزاء إصرارهم على الكفر ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا﴾ أي فلا تخدعنكم الدنيا بزخرفها ونعيمها وشهواتها عن العمل للآخرة ﴿ولا يَغُرَّنَّكُم باللّهِ الغَرُورِ﴾[1] أي ولا يخدعنكم الشيطان فيمنّيكم المغفرة ويقول لكم اعملوا ما شئتم من المعاصي، فإن اللّه غفور رحيم يغفر الذنوب جميعاً، ويحملكم على الإصرار على الكفر.

ويتابع القرآن فيحذر الناس من الاستجابة إلى وساوس الشيطان:

﴿إنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوًّا إنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ ليكونوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعيرِ. الذينَ كفروا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (٦ ـ ٧).

فالشيطان هو عدو للناس وعداوته ابتدأت بأبيهم آدم حيث أخرجه من

---

(١) الغرور: الشيطان.

الجنة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي عاملوا الشيطان معاملة العدو وذلك بمخالفة ما يدعو إليه والحذر منه لأن العدو لا يدعو إلى خير، ومعاداته تكون أيضاً بطاعة اللّٰه لأن الطاعة تكيده وتعود بالنفع على المطيع ﴿إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ ليكونوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ إنما يدعو أشياعه والمطيعين له إلى معاصي اللّٰه لأجل أن يكونوا من أهل النار ﴿الَّذِينَ كَفَروا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالذين جحدوا بوجود اللّٰه أو وحدانيته وكذبوا بنبوة محمد لهم عذاب شديد من اللّٰه وهو عذاب النار ﴿وَالذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كريمٌ﴾ والذين صدّقوا باللّٰه ورسوله محمد وعملوا بما أمرهم اللّٰه به من الأعمال الصالحة وانتهوا عما نهى اللّٰه عنه لهم من اللّٰه مغفرة لذنوبهم وثواب كبير على أعمالهم وهو الجنة.

ثم يصور القرآن نفسية بعض الناس الذين يلتبس عليهم التميز بين الهدى والضلال فهؤلاء لا يجدي فيهم نصح ولا إرشاد:

﴿أَفَمن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿أَفَمَن[١] زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ اي أفمن حُسِّن له سوء عمله فرآه حسناً بأن رأى الباطل حقًّا والقبيح حسناً كمن هداه اللّٰه، وتحسين العمل السيىء يكون من وسوسة الشيطان، ومن أهواء النفس الأمارة بالسوء.

فموطن الداء هو أن يعجب الإنسان بما يصدر عنه من أفعال سيئة فيظنها حسنة ولا يفتح أذنيه للموعظة ولا يراجع نفسه ليرى موضع الخطأ في تصرفاته، فهذا الصنف من الناس لا يجدي معهم نصح ولا إرشاد،

---

(١) أفمن: الاستفهام للإنكار ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره: كمن هداه اللّٰه.

ولا موجب للتحسر على تصرفاتهم.

ثم يردُّ اللّه على منكري البعث ويبين إمكان وقوعه بتلك الصورة المأخوذة من المظاهر الطبيعية التي هي على مرأى أنظارهم:

﴿وَاللَّهُ الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاه إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩).

فاللّه سبحانه أرسل الرياح مسخرة منه ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ فتنشر وتحرك سحاباً تراكم من أبخرة المياه ﴿فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ فدفعه اللّه بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة فذهب إلى حيث يريد اللّه أن يصل، إلى بلد مجدب قاحل ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأحيا اللّه بهذا السحاب ـ بعد هطوله مطراً ـ صنوف النبات بعد أن كانت الأرض مواتاً يابسة ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ كذلك تحيون ـ أيها الناس ـ بعدما مِتُّم، كما أحيا اللّه الأرض بعد موتها.

وقد روي أنه إذا أراد اللّه بعث الأجسام أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض.

ثم يبيّن القرآن حقيقة العزة والرفعة وكيفية السعي للحصول عليها، متصدياً للأساليب الباطلة التي يسير عليها المشركون والمنافقون:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ والَّذِين يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّة جَمِيعاً﴾ أي من أراد العزة لنفسه فليطلبها من اللّه وحده، فإن العزة كلها مختصة به سبحانه: عزّة

الدنيا، وعزة الآخرة، ليس لغيره منها شيء، وطلب العزة يكون بطاعة الله.

فمن طلب العزة من الله بافتقار وذل وطاعة وجدها عنده سبحانه غير ممنوعة فهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وقد جاء في القرآن: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمِنِين﴾ فالعزة الحقيقة هي لله، والعزة لرسول الله محمد لقربه من الله، والعزة للمؤمنين لأنهم أطاعوا الله ورسوله.

والكلام عن العزة كان المراد بها تصحيح المفاهيم الباطلة عند المشركين والمنافقين، فقد كان المشركون يتمسكون بعقيدتهم الوثنية استبقاء لمكانتهم الدينية في مكة وما تقوم عليه من سيادة لقريش على القبائل بحكم العقيدة، فقد كانوا سدنة[1] الأوثان، وكانت هذه السدانة تحقق لهم مغانم متعددة الألوان وعزة ومنعة وقد قال الله فيهم في القرآن: ﴿واتَّخذوا مِنْ دُونِ اللَّه آلِهَةً ليكونوا لهم عِزًّا﴾ مريم: ٨١.

وكان المنافقون يتعززون بالمشركين ويظهرون الولاء لهم ليتعززوا بهم فأنّبهم الله على ذلك بقوله: ﴿الَّذِين يتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أولياء مِنْ دُونِ المؤمنين أيبتغون عندهم العِزَّة﴾ الأنبياء: ١٣٩.

فالله سبحانه يريد من الإنسان أن يستعلي على مطامعه وشهواته ومخاوفه وتذلله للناس ابتغاء العزة، وأن يكون مرفوع الرأس لا يذل إلاّ لخالقه، فالعزة كلها مصدرها من الله ونيلها يكون بطاعته.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ والكلم: جمع كلمة، والكلم الطيب هو توحيد الله والدعاء والاستغفار وتلاوة القرآن، وذكر الله، كأن يقول:

---

(١) سدنة: خدّام الكعبة. مفردها سادِن.

سبحان اللّه والحمد للّه ولا إلّه إلا اللّه واللّه أكبر، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصعود الكلم الطيب إلى اللّه هو قبوله والرضا به.

﴿وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي وثواب الكلم الطيب يرفعه إلى اللّه عمل الإنسان الصالح وهو العمل بطاعة اللّه وأداء فرائضه والانتهاء عما نهى عنه، فمن قال كلاماً طيباً وعمل عملاً غير صالح ردّ اللّه عليه قوله، والإيمان ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، وقيل المراد بالعمل الصالح هنا، العمل الخالص لوجه اللّه وذلك أن الإخلاص سبب في قبول الأعمال.

وقيل: العمل الصالح يرفع من يعمله ويشرفه، أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً.

﴿والذين يَمْكُرونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ مكر: دبر الشر لغيره في خفية واحتال لإيقاع الأذى به، فالذين يحتالون ويدبرون السوء والأذى لرسول اللّه ولدين اللّه لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبور: أي يبطل ويذهب هباء. ولفظة بار يبور تستعمل في معنى الأرض التي تركت فلم تزرع، أي أن تدبير المشركين الأذى لرسول اللّه لا يحيا ولا يثمر، وذلك تنسيقاً مع إحياء اللّه للأرض وإثمارها في الآية السابقة.

والآية هي من الأنباء الغيبية التي تحققت، فقد مكر المشركون برسول اللّه حين اجتمعوا في دار الندوة وقرروا قتله فنجّاه اللّه منهم وانقلب مكرهم عليهم فقتل سبعون منهم في معركة بدر بعد فترة وجيزة من تدبير مكرهم وتآمرهم على قتل رسول اللّه.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى خلق الإنسان وما في ذلك من عظمة الإبداع لقدرة اللّه التي تشهد بوحدانيته:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُم أَزْواجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثى وَلاَ تَضَعُ إلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلَّا في كِتَابٍ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١).

فالله سبحانه يقول بأنه خلق الإنسان من تراب وهذا حق فإن النطفة في كل من الذكر والأنثى التي يتكوّن منها الجنين هي وليدة التغذية التي يتغذى بها الإنسان وأصل هذه التغذية هو التراب، وقد يراد أن آدم وهو أول إنسان انحدر منه الجنس البشري الحالي خلق من تراب[١].

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُم أَزْوَاجاً﴾ ثم خلق الله الإنسان من نطفة، والنطفة هي مني الرجل الذي يحتوي على ملايين الحييات المنوية وعند الاتصال بالمرأة فإن إحدى هذه الحييات المنوية التي يقذفها الرجل في رحم المرأة يخرق بويضة الأنثى ويمتزج بها وهذه أول عملية تكوين الجنين ثم تحصل تطورات يصبح بعدها الجنين ذكراً أو أنثى ثم يرى النور في الوقت المحدد للولادة، وفي سن الشباب عند التقاء الذكر والأنثى عند التزاوج تتكرر عملية التكاثر للنوع الإنساني وكذلك العملية ذاتها تتكرر في عوالم الكائنات الحية.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين ولا تلده إلا بعلم الله تعالى. وتصوير علم الله المطلق بكل أنثى على وجه الأرض بأنها تحمل في بطنها جنيناً وتضعه في وقت معلوم يشهد بأن القرآن مصدره من الله لأنه ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتطرق إلى هذه الأمور الغيبية ويصف الله بهذا الوصف.

---

(١) جاء في القرآن: ﴿إنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ الله كمثل آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فيكون﴾.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّـرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ في كِتَـابٍ﴾ أي لا يكون عمر أناس طويلاً وعمر آخرين قصيراً إلاّ وهو مكتوب عند اللّه في كتاب، وقد فسِّر الكتاب بأنه اللوح المحفوظ، وقيل صحيفـة كل إنســان، وقيل المـراد بالكتاب هو العلم الأزلي.

فليس لأحد قضى اللّه له طول العمر والحياة إلاّ وهو بالغ ما قدّر له من العمر لا يزاد عليه، وينتهي إلى الوقت الذي كتب أنه سيبلغـه، وليـس لأحد قضى اللّه أنه قصير العمر والحياة ببالغ أكثر من عمره المكتوب، ولا ريب في أن هذا المفهوم بأن عمر الإنسـان محدَّد يمد الإنسان بالشجاعـة والقوة عنـد الدفاع عن وطنه، كما أن ذلك يلطف من عميق حزنه عند مصـابه بفقد أحد أفراد عائلته وأحبائه ﴿إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إحصاء طويل الأعمار وقصيرها سهل على اللّه لا يخفى عليه شيء منها.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ
هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ
لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟
مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ
مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

شرح المفردات

عذب : مستساغ.

فرات : أشد الماء عذوبة .

سائغ شرابه: سهل مدخله في الحلق.

ملح أجاج : شديد الملوحة والمرارة.

الفلك : السفن.

مواخر : تشق الماء بمُقَدَّمِها.

يولج : يدخل.

لأجل مسمى : لوقت مقدر لفنائهما (يوم القيامة).

قِطْمِير: القشرة الرقيقة التي على نواة التمر.

بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا
لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا
ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا
ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾
إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

شرح المفردات

لا تزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى : لا تؤاخذ نفس بذنب نفس أخرى.

مُثْقَلَةٌ : نفس أثقلتها الذنوب.

تَزَكَّى : تطهر من الشر والآثام.

الأعمى والبصير : المراد بهما الكافر والمؤمن.

الحَرُور : الريح الحارة أو هو الحر بعينه.

خلا : مضى وسلف.

الزُّبُر : الكتب الإلهية المكتوبة كصحف إبراهيم.

أَخَذْتُ : أهلكت.

كيف كان نكير : كيف كان إنكاري عليهم بالعقاب والهلاك.

تابع سورة فاطر

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى البحار والأنهار والبحيرات وما فيها من آيات القدرة الإلٓهية:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلونَ لحماً طريًّا وتستخرجون حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ولِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرونَ﴾ (١٢).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ أي لا يتماثل ولا يتعادل البحران والمراد بهما البحر العذب والبحر المالح، وحسب الاصطلاح الحديث ليس هناك بحار حلوة وإنما هي بحيرات ولكن العرب تسمي الماء الكثير بحراً ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ هذا ماء مستساغ شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ يسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهذا ماء شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا﴾ ومن كل من البحرين العذب والمالح تأكلون السمك والحيوانات البحرية الطرية على اختلاف أنواعها ﴿وَتَسْتَخْرِجونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها﴾ أي وتستخرجون من الماء المالح والعذب اللؤلؤ والمرجان وغيرهما للتحلي والتزين[1] ﴿وَتَرى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ الضمير في «فيه» يعود إلى الماء المالح ولولا ذلك لقال:

---

(١) من المعلوم أن بعض الحلي تستخرج من البحر المالح وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدراً للحلي أيضاً، ولكن الواقع أثبت غير ذلك. فاللؤلؤ كما يستخرج من البحر يستخرج أيضاً من الأنهار فتوجد اللآلىء في المياه العذبة في إنجلترا وتشيكوسلوفاكيا واليابان، ويدخل في ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن الصلبة التي تتخذ للزينة كالماس الذي يستخرج من رواسب الأنهار الجافة وكذلك الياقوت يوجد في الرواسب النهرية في بورما العليا وفي سيام وسيلان. والزيركون حجر كريم يستخرج من الرواسب النهرية.

فيهما. أي وترى السفن تشق مياه البحر بجريها فيه ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي ولتطلبوا شيئاً من فضل اللّه بالتجارة ﴿وَلَعَلَّكُم تَشْكُرونَ﴾ ولكي تشكروا ربكم على تسخير البحار والأنهار لمنفعتكم.

ويتابع القرآن فيلفت الأنظار إلى بعض المظاهر الطبيعية التي أوجدها اللّه في الكون وتتوقف عليها حياة الكائنات مفنداً بعد ذلك عبادةالأوثان:

﴿يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهار في الليل وَسَخَّر الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لِأَجلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ المُلْكُ والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُم لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرونَ بِشِرْكِكُم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٣ ـ ١٤).

فاللّه سبحانه يقول: ﴿يُولج الليل في النَّهارِ﴾ أولج: أدخل، واللّه يدخل بعض زمن الليل في النهار فيزيد النهار وينقص الليل ﴿وَيولجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ﴾ ويدخل بعض وقت النهار إلى وقت الليل فيزيد الليل وينقص النهار حسب الفصول التي تنشأ من دوران الأرض حول الشمس، كما أن الليل والنهار ينشآن من دوران الأرض حول نفسها، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغير ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة والتطور كما يدعي الماديون وإنما هو من صنع اللّه الذي أتقن كل شيء خلقه.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَر﴾ وذلّل اللّه الشمس والقمر لمصلحة عباده ﴿كُلٌّ يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل منهما يجري في فلكه مدة دورته حسب حركته الخاصة جرياناً مستمرًّا إلى أجل قدّره اللّه وهو فناء العالم فينقطع حينئذٍ جريانهما ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ ربكم لَهُ المُلْكُ﴾ فالذي يفعل هذه الأفعال

هـو ربكم أيها النـاس الذي لا تصـح العبادة إلاّ لـه، له الملك التـام وكـل الكائنات في ملكه وسلطانه ﴿والذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ والذين تعبدون أيها الناس من دون اللّه من آلهة وأصنام ﴿مَا يَملكون مِنْ قِطْمير﴾ قِطْمير: القشرة الرقيقة الملتفة على نواة التمرة، تُضرب مثلاً للتافه القليل القيمة، والغرض أنهم لا يملكون شيئاً ﴿إنْ تَدْعُوهم لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُم﴾ إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة من الأصنام التي تعبدونها من دون اللّه لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تسمع ما تقولون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُم﴾ ولو سمعوا دعاءكم على سبيل الفرض والتمثيل لم يجيبوكم إلى ما تدعونهم ولم ينفعوكم ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرونَ بِشِرْكِكُم﴾ ويوم القيامة يتبرأون منكم ومن عبادتكم إياها ومن أنها كانت شريكاً للّه بأن ينطقها كما أنطق كل شيء ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبيرٍ﴾ ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمر من عبدها يوم القيامة مثل ذي خبرة بأمرهم وأمرها، وذلك الخبير هو اللّه سبحانه.

ثم يبين القرآن بأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان اللّه وفضله، وأنه سبحانه غني عمن سواه.

﴿يَا أَيُّها النَّـاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ وَاللّهُ هُـوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ. إنْ يَشَـأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَديدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٥ ـ ١٧).

فاللّه سبحانه يخاطب الناس جميعاً بأنهم هم الفقراء وأولو الحاجة إلى اللّه، فإياه فليعبدوا وفي رضائه فليسرعوا، وفي تعريف الفقراء بالألف واللام في وصف الناس للمبالغة في وصف فقرهم بالنسبة إلى اللّه. ﴿واللّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ واللّه غني عن عبادتهم إياه وهو المنفرد بالغنى وحده وهو الحميد: أي مستحقٌ للحمد من عباده بإحسانه إليهم، فكل النِّعم منه سبحانه فله الحمد والشكر ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إن يشأ يهلككم أيها الناس

﴿وَيَـأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيـدٍ﴾ ويأتِ بـدلكم بخلق جديـد يطيعـونه ولا يعصـونه، أو يأتي بنوع من أنواع الخلق غير ما تعرفـون ﴿وَمَا ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيـزٍ﴾ وما ذلك الأمر بممتنع ولا متعسـر بل ذلـك عليه يسيـر سهل، وهـذا تهديـد ووعيد لهم إن ظلوا على كفرهم.

فالناس في حاجة إلى تذكيرهم بهـذه الحقيقة لئلا يركبهم الغـرور في معرض دعوتهم إلى الهدى، وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بـالله وعبادتـه والعمل الصالح فإن الله غني عنهم، وأن عبادتهم له لا تزيد في ملكه شيئاً، وأنهم لا يعجزون الله فهو إن شاء أن يهلكهم ويأتي بخلق جديد لفعل، فالله سبحانه حين دعا الناس إلى الهدى كانت دعوته لهم رأفـة بهم لينشـلهم من درب الشقاء إلى درب السعادة.

ثم يبين القرآن أن الإنسان وحده يتحمل مسؤولية عمله وأن ترفعـه عن الآثام يعود بالخير والنفع عليه:

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَـدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا لا يُحْمَـلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبِى إِنَّما تُنْذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَـزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨).

فالله سبحانه يقول: ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١] أي ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، بل كل نفس وحدها تتحمـل مسؤولية مـا ارتكبته من آثام، ولا يؤخذ بريء بجريرة ظالم.

هـذه هي العدالـة الإلٰهية، وهـذا ما أراد الله أن يعيـه الإنسـان ويسيـر بموجبه. ولقد ضلت البشرية حقبة طويلة من الزمن عن هذا المفهوم العادل،

---

(١) ولا تَزِرُ: ولا تحمل. وازِرَة: نفـس آثمة. وِزر: ذنب، إثم.

فكم من حوادث الأخذ بالثأر ارتكبت، وكم من الانتقامات ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء، كل ذلك خروج عن الهدي الإلهي.

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا﴾ وإن تسأل نفس مثقلة بالذنوب وتطلب من أحد أن يحمل عنها ذنوبها ليخفف عنها ما تعانيه منها ﴿لا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ لم تجد من يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولو كان الذي سألته ذا قرابة كأب أو أخ أو ابن، لأن لكل امرىء يوم القيمة شأناً يغنيه.

فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله لا يحمل عنه أحد ذنبه ولا يعفيه منه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه على كل إثم يقترفه، مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء غير عمله الصالح.

﴿إنَّما تُنْذِرُ الَّذِين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي إن إنذارك يا محمد في قومك يجدي وينفع الذي يخافون ربهم في خلواتهم بعيدين عن الناس، أو يخشون عذاب الله وهو غائب عنهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها وخشوعها على ما فرضها الله عليهم ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ ومن تطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله والعمل بطاعته ﴿فإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ فإن ثمرة ذلك ونفعه يعود عليه لأنه بذلك يثاب برضا الله والفوز بنعيم الجنة والنجاة من عذاب النار ﴿وَإِلى اللهِ المصيرُ﴾ وإلى الله المرجع والمآب يجزي كل عامل بعمله.

ثم ينتقل القرآن إلى وصف نفسية الكافرين فهم في ضلالة كالعمي، وطريقهم الظلمة، وهم كالأموات لا ينتفعون بشيء:

﴿وَمَا يَسْتوي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ. ولا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ. ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ. وَمَا يَسْتَوي الأَحْيَاءُ ولا الأَمْوَاتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ منْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُورِ. إنْ أَنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ﴾ (١٩ ـ ٢٣).

فاللَّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ مثَّل اللَّه الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير، والأعمى والبصير لا يتماثلان. فالكافر أعمى لأنه لم يبصر دلائل الحق في دين الإسلام ولم يسترشد بهداه، والمؤمن بصير لأنه أبصر الدين الحق فاتبع محمداً وصدقه فيما جاء به من عند ربه.

﴿وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ﴾ أي لا تتماثل الظلمات مع النور، فالظلمات إشارة إلى الباطل، والنور إشارة إلى الحق. وجاءت صيغة الظلمات بالجمع والنور بالمفرد لتعدد فنون الباطل ووحدة الحق. فالكفر هو الباطل وهو ظلمة في القلب والرؤية، يجعل صاحبه في حيرة واضطراب وتعثر مستمر، والإسلام هو الحق وهو النور الذي يسترشد به الإنسان في طريقه إلى الفوز والفلاح.

﴿ولا الظِّلُّ ولا الحَرُورُ﴾[1] أي لا يتماثل أيضاً الظل وما فيه من برودة مع الحر الشديد، والظل إشارة إلى الثواب، والحرور إشارة إلى العقاب، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة ونعيم في الآخرة، والكافر بكفره في حرٍّ وتعب وعذاب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ الأحياء هم المؤمنون الذين دخلوا في دين الإسلام، والأموات هم الكافرون الذين أصروا على الكفر والضلال. والأحياء والأموات لا يتماثلان، فالإيمان حياة في القلوب، ويقظة في الضمائر يحيي المجتمعات بما يوحي من مبادىء سامية، والكفر هو موت في الضمائر وتدمير للقيم السامية وفساد في النفوس.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إن اللَّه يُسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق

---

(١) الحرور: الحر الشديد وسمي حروراً مبالغة في شدة الحر لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

فيشرح صدره للإسلام ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ﴾ وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار هدى الله لأنهم في عدم إصغائهم إلى سماع كلمة الحق هم بمنزلة من قد ماتوا ودفنوا في قبورهم، فكما أن من مات لا يسمع فكذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون لأنهم أموات القلوب ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وما أنت يا محمد إلاّ رسول من الله تخوّف هؤلاء الكفار من عذاب النار إن أصروا على كفرهم. وفي هذا البيان تسرية لأحزان النبي ﷺ بسبب عدم استجابة قومه له.

وبعد هذه المقارنة بين المؤمن والكافر يخاطب الله رسوله محمداً مبيناً له واجبه في الدعوة إلى دين الله، مع إنذار المكذبين بنبوة محمد ﷺ:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ. وَإِنْ يُكَذِّبوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِم جَاءَتْهُم رُسُلُهم بِالبَيِّنَات وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المنيرِ. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِين كَفَروا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٢٤ ـ ٢٦).

فالله سبحانه يقول: إنا أرسلناك يا محمد للناس جميعاً بالدين الحق مبشراً بنعيم الجنة من صدقك واتبع دين الإسلام، ومنذراً بعذاب النار من كذبك وكفر بالإسلام ﴿وَإِن مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ والأمة: الجماعة الكثيرة، ويقال لأهل كل عصر أمة. أي وما من أمة مضت من بني آدم إلاّ وقد بعث الله فيهم رسولاً يخوفهم سوء عاقبة الكفر والظلم والطغيان، وهذا من حكمة الله في خلقه حتى لا يكون للضالين عذر يوم القيامة فيقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا فيبين لنا طريق الحق، ولذا وصف الله الغاية من إرسال الرسل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاً يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ..﴾ النساء: ١٦٥.

﴿وَإِن يُكذِّبوكَ فَقَدْ كذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهم﴾ وإن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم، فلا تحزن يا محمد ولا تغتم من تكذيبهم لك ﴿جَاءَتْهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم رسل الله بالمعجزات والحجج الواضحة الدالة على نبوتهم ﴿وَبِالزُّبُر﴾ وبالكتب من عند الله ﴿وَبالكتَابِ المنيرِ﴾ وجاءهم من الله الكتاب المنير الذي يظهر لمن تأمله وتدبره أنه الحق. قيل المراد بالزبر: صحف إبراهيم، وبالكتاب المنير: التوراة والإنجيل ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِين كَفَرُوا﴾ ثم أهلك الله الذين جحدوا رسالة رسله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير، فإنهم قد علموا شدة إنكار الله عليهم بالتدمير والهلاك والعذاب. وهذا إنذار للأمم الكافرة ـ في كافة العصور ـ بأن يحل عليها من العذاب والهلاك مثل ما حل بالأمم السابقة التي عصت أوامر ربها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ
لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا

شرح المفردات

جُدَدٌ : طرائق مختلفة الألوان.

غرابيب سود : شديدة السواد.

لن تبور : لن تكسد ولن تهلك.

مقتصد : استوت حسناته وسيئاته.

أذهب : أزال.

الحَزَن : الهم والغم.

دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ
عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ
فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧
إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨
هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ
ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ
إِلَّا خَسَارًا ٣٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى
مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ
عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠

شرح المفردات

دار المقَامة : دار الإقامة الدائمة (الجنة).

نَصَبٌ : تعب ومشقة.

لُغُوب : أشد الإعياء وأقصى التعب.

يصطرخون : يستغيثون ويصيحون بشدة.

خلائف في الأرض : خلفاء من كان قبلكم من الأمم.

مقتاً : أشد البغض.

أم لهم شِرك : أم لهم شركة مع الله في الخلق.

غُرُوراً : باطلاً أو خداعاً.

تابع سورة فاطر

ثم يلفت القرآن أنظارنا إلى بعض المظاهر الطبيعية والمخلوقات الحية التي تشهد بوجود الله ووحدانيته وعظيم قدرته:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (٢٧ ـ ٢٨).

والمعنى: ألم تعلم ـ أيها المخاطب ـ أن الله أنزل من السماء مطراً فسقيناه نباتات وأشجاراً في الأرض فأخرجنا به من تلك النباتات والأشجار ثمرات مختلفاً ألوانها: منها الأحمر، ومنها الأسود، ومنها الأصفر، ومنها الأخضر، ومنها غير ذلك من الألوان.

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ ومن الجبال طرائق وخطوط بعضها بلون البياض، وبعضها بلون الحمرة، مختلفة ألوانها بالشدة والضعف ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي ومن الجبال طرائق سود شديدة السواد، وغرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد، والغربيب تأكيد للأسود، وإنما قدمه عليه للمبالغة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي كذلك هذا التنوع في الألوان نجده في الجنس البشري، فمنهم الأبيض والأسمر والأحمر والأسود والأصفر. وكذلك تنوع الألوان نجده في الدواب، والدواب جمع دابة وهي كل حيوان يدب على الأرض، والأنعام: هي الإبل والبقر

---

(١) جدد: جمع جُدَّة وهي الطريقة الظاهرة، والطريقة والطريق بمعنى واحد.

والغنم والماعز خصها القرآن بالذكر لألفتها للإنسان.

﴿إنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلماءُ﴾ أي ما يتدبر هذا الصنع العجيب ويخشى صانعه إلاّ العلماءُ الذين يدركون أسرار هذه الصنعة، ومن ثم يعرفون اللَّه معرفة حقيقية ويستشعرون حقيقة عظمته ومن ثمّ يخشونه حقًا عن علم وبصيرة ويتقونه حقًا ﴿إن اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ إن اللَّه هو القوي الغالب، غفور لمن يرجع إليه بالتوبة والطاعة.

فالقرآن يصف هذا التنوع في الألوان: في الثمر، والجبال، والإنسان والحيوان بكلمات قليلة تشهد بمصدرها الإلّهي. ومن الملفت للنظر أن مصدر كل تنوع في الألوان من كل صنف يصدر من مصدر واحد، فالثمرات المختلفة الألوان مصدرها تربة واحدة وماء واحد، والجبال الحمر والبيض والسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة أصل معينها من باطن الأرض ويسميها علماء الجيولوجيا بالصهارة، وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق في أماكن مختلفة من الأرض يعتري تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الأمر في كتل أو جبال مختلفة المادة والألوان، فالصخور التي تتألف من حديد يكون اللون السائد فيها أحمر، والتي تتألف من فحم أو منغنيز يكون اللون السائد فيها أسود، وهكذا...

أما اختلاف الألوان في الناس والدواب والأنعام فمصدرها الخلايا، فالخلية هي الوحدة المتناهية في الصغر والتي تحتوي على مادة الحياة، وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً، وفي نواة خلية كل ذكر وأنثى يوجد وحدات الوراثة التي يطلق عليها «جينات» وهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً من حيث خصائصها الفردية وألوانها وأجناسها، فهل هي الصدفة العمياء التي أنشأت الخلايا؟ لا،

لا يقول بهذا عاقل أبداً بل الذي أنشأها الله خالق كل شيء، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وبعد هذه الجولة في أسرار الطبيعة وفي مخلوقات الله يأتي عقب ذلك الوعد بالأجر الجزيل لقراء القرآن وللذين يقومون بواجب العبادة:

﴿إِنَّ الذينَ يَتْلُون كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِراً وَعَلانِيةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُم أُجُورَهُم وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٩ ـ ٣٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الذينَ يَتْلُون كِتَاب اللَّهِ﴾ أي إن الذين يقرأون كتاب الله وهو القرآن الذي أنزلناه على محمد، ويداومون على قراءته ويعلمون ما فيه ويعملون به ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها كاملة بخشوع مستوفية لشروطها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وتصدقوا بما أعطيناهم من الأموال سرًّا في خفاء وجهاراً قاصدين بذلك وجه الله لا للرياء والسمعة ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ يتوقعون معاملة مع الله لنيل الربح وهو الثواب ﴿لَنْ تَبور﴾ لن يُصيب هذه التجارة الكساد ولا الخسران.

وقد اشتهر عن هذه الآية بأنها آية القراء لما وعدت به قراء القرآن من الثواب الجزيل بجانب الصلاة والصدقة.

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُم﴾ أي سيعطيهم الله أجور أعمالهم الصالحة كاملة ﴿وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ ويزيدهم على ثواب أعمالهم من خزائن رحمته ما يشاء ﴿إنه غفور شكور﴾ إنه غفور لذنوب عباده إذا تابوا عنها، شكور لحسناتهم ومثيبهم عليها.

ثم يبين الله سبحانه العلاقة التي تربط القرآن بالكتب الإلَهية السابقة مع

التنويه بأمة محمد التي أورثها القرآن للعمل به:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ. ثُمَّ أَورَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصطفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ (٣١ - ٣٢).

والمعنى: والذي أوحينا إليك يا محمد من القرآن هو الحق الذي لا شبهة فيه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلّهية السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور وذلك لاتفاق أصولها ﴿إِنَّ اللَّه بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ إن اللّه عالم ببواطن الأمور لعباده، بصير لا تخفى عليه خافية من شؤونهم.

فالعلاقة التي تربط الإسلام بالديانتين الإلّهيتين: اليهودية والنصرانية في صورتهما الأولى الحقيقية التي أنزلت على موسى وعيسى هي علاقة تصديق، وعلاقته بهما في صورتهما الحاضرة التي وصلت إلينا هي علاقة تصديق لما بقي من أجزائهما الأصلية، فما ورد في القرآن من العقائد إن كان في التوراة والإنجيل ما يماثله فهو حق، وما يخالفه من العقائد فهو باطل وهو من التحريفات التي أُدخلت عليها. أما الشرائع فهي تختلف من رسول إلى آخر. وقد جاء في القرآن: ﴿لكلٍّ جَعَلْنا منكم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ النساء: ٤٨. أي لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة وطريقاً واضحاً في الدين يمشي عليه.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ﴾ ثم أعطينا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد ميراثاً منك لأمتك فأتحنا لهم حفظه وعلمه والعمل به ﴿الَّذِينَ اصطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وعبادنا المراد بهم أمة محمد من الصحابة والتابعين وتابعيهم من بعدهم إلى

يوم القيامة. ومعنى اصطفائهم: اختيارهم واستخلاصهم. وفي التعبير بالاصطفاء تنويه بفضل أمة محمد على سائر الأمم، إذ خصهم الله بكرامته وجعلهم أتباع سيد الرسل وخصهم بالقرآن أفضل الكتب المُنزلة.

ثم قسّم الله أتباع محمد إلى فئات ثلاث: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ باقترافه الصغائر من الذنوب والمعاصي التي هي دون النفاق والشرك بالله، وقيل الظالم نفسه هو الذي رجحت سيئاته على حسناته ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ وهو غير المبالغ في طاعة ربه الذي استوت سيئاته وحسناته ﴿وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهو الذي رجحت حسناته على سيئاته، وسبق الناس إلى الأعمال الصالحة وخدمة ربه وأداء ما لزمه من الفرائض ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيق الله إياه لذلك ﴿ذَلِكَ الفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ ذلك السبق بالخيرات هو الفوز الكبير من الله.

وقيل في معنى ما سبق: الظالم الذي أخذ بالقرآن ولم يعمل به، والمقتصد الذي عمل به، والسابق بالخيرات الذي أخذه وعمل به وبيَّن للناس العمل به فعملوا به.

ثم بيَّن القرآن مصير الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يمسُّنا فيها نصبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٣٣ ـ ٣٥).

فهؤلاء الثلاثة جزاؤهم في الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات استقرار واطمئنان، يتزينون فيها بأساور من ذهب ولؤلؤ، وثيابهم في الجنة من حرير. وقد قيل ـ والله أعلم ـ إن السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب،

والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً، والظالم لنفسه يدخل الجنة بعد عقوبة اللّه إياه على ذنوبه التي أصابها في الدنيا مع التوبيخ لما صدر منه.

﴿وَقَالُوا الحمْدُ لِلَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ والحَزَن: الهم والغم، لقد أثنوا على ربهم عند دخولهم الجنة لأنه أزال عنهم الهم والغم ﴿إنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إن ربنا غفور لذنوب عباده شكور لهم على حسناتهم وطاعتهم إياه ومثيبهم عليها ﴿الذي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِه﴾ الذي أنزلنا دار النعيم المقيم الذي لا انتقال منه ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا يصيبنا فيها تعب ﴿ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ﴾ ولا يصيبنا فيها إعياء وعناء.

وبعد الكلام عن مصير المؤمنين في الجنة يأتي الكلام عن الكافرين في النار:

﴿وَالذينَ كفروا لَهُم نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِم فَيموتُوا وَلا يُخَفَّفُ عنهم مِنْ عَذَابِها كَذَلِكَ نجزي كُلَّ كفُورٍ. وَهُم يَصْطَرِخُونَ فيهَا رَبَّنَا أخرجْنَا نَعْمَلْ صَالحاً غير الذي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يَتَذَكَّرُ فيه مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقوا فَمَا للظَّالمينَ مِنْ نَصِيرٍ. إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٦ ـ ٣٨).

فاللّه سبحانه يقول: والذين جحدوا بآيات اللّه وكذبوا رسله فلهم في الآخرة عذاب النار في جهنم ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِم فَيموتوا﴾ لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿ولا يُخَفَّفُ عَنْهم مِنْ عَذَابِهَا﴾ ولا يخفف عنهم شيء من عذاب الحريق بل هم في عذاب مستمر ﴿كَذَلِك نَجْزي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي بمثل هذا العذاب يجازي اللّه كل كفور به جاحد لنعمه مكذب برسله ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُون[1] فِيهَا﴾ وهم يستغيثون في النار

(١) يصطرخون: اصطرخ (افتعل) من الصراخ وهو الصوت العالي. والصارخ المستغيث.

بأصوات عالية ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ربنا أخرجنا من عذاب النار وردّنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً غير الذين كنا نعمل، وقولهم هذا فيه تحسّر على ما عملوه من السيئات واعتراف منهم بأن أعمالهم كانت غير صالحة. أمام هذه الاستغاثة منهم والاعتراف بسيئاتهم يجيبهم الله: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَا يتذكرُ[1] فيه من تَذَكَّرَ﴾ أي ألم نُطِلْ أعماركم زمناً يتمكن فيه من التدبر والتفكر من يريد أن يستحضره في ذهنه ويتدبره بأن مصيره إلى الله وأن هناك حساباً وعقاباً، وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «أعذر[2] الله إلى امرىءٍ أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة»[3] والمعنى: أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ والنذير بمعنى الإنذار واختلف في معناه فقيل هو الرسول محمد ﷺ، وقيل هو القرآن، وقيل هو الشيب لأن الشيب نذير الموت، وقيل موت الأهل والأقارب ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ فذوقوا عذاب جهنم لأنكم لم تعتبروا، فليس لكم نصير يمنعكم من عذاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إن الله مُطَّلع على كل غائب في السموات والأرض لا يغيب عن علمه شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله عليم بخفايا الصدور من النزعات والميول.

ويتابع القرآن فيذكر أن الكفر يعود على صاحبه بالبغض من الله والخسران:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خلائِفَ في الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ولا يزيدُ الكافرين كُفْرُهُم عِنْدَ رَبِّهم إلاَّ مَقْتاً وَلا يزيدُ الكافرين كُفْرُهُم إلاَّ

---

(١) أوَ لم نعمركم ما يتذكر: الهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام و «ما» الداخلة على يتذكر هي نكرة موصوفة بمعنى: وقت.

(٢) أعذر: بلغ به أقصى العذر.

(٣) أخرجه البخاري.

خساراً﴾ (٣٩).

فالله سبحانه يقول: ﴿هُوَ الذي جَعَلَكُم خَلاَئِفَ في الأَرْضِ﴾ خلائف: جمع خليفة وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه، فالله جعلكم ـ أيها الكفار ـ كما جعل غيركم من الناس خلائف في الأرض لِمن مضى قبلكم من الأمم، أو جعلكم خلفاءه في أرضه لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فمن كفر بالله فعليه وزر كفره لا يضر بذلك غير نفسه لأنه المعاقب عليه دون غيره ﴿وَلا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِم إلاَّ مَقْتاً﴾ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ بُعداً عن رحمة الله وبغضاً شديداً منه ﴿وَلا يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُم إلاَّ خَسَاراً﴾ ولا يزيد الكافرين كفرهم بالله إلاّ هلاكاً وضلالاً.

وبعد أن بيَّن القرآن مصير الكافرين في الآخرة انتقل إلى طلب الدليل منهم على صحة عبادتهم للأصنام:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءكم الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أروني مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أم لَهُم شِرْكٌ في السَّموات أم آتيناهم كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بيِّنَةٍ مِنْهُ بل إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهم بَعْضاً إلاَّ غُروراً﴾ (٤٠).

فالله سبحانه يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءكُم﴾ أي قل يا محمد للمشركين: أخبروني عن شركائكم. وشركاؤهم هم أصنامهم التي جعلوها شريكة لله، وإنما أضاف الشركاء إليهم من حيث أن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله وإنما هم الذين جعلوها شركاء لله ﴿الذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي هذه الأصنام التي تعبدونها متجاوزين الله في العبادة ﴿أَرُوني مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أروني قدرتها في الأرض وأي شيء خلقت فيها ﴿أَمْ لَهُم شِرْكٌ في السَّموات﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات والتصرف

فيها. فقد كان المشركون يقولون: إن السماء خلقت باستعانة الملائكة، والملائكة شركاء لله في خلق السموات وهذه الأصنام هي صورة لها أو رمز لها ﴿أَمْ آتيناهم كِتَاباً فَهُم عَلَى بيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أم هل أعطينا المشركين كتاباً من عندنا بأن آلهتهم شركاء لله فهم على بيان منه وحجة بأن مع الله شريكاً ﴿بَل إنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهم بَعْضاً إلا غُروراً﴾ أي وما يعد الظالمون بعضهم بشفاعة الأصنام ما هو إلاّ خداع وطمع في الباطل فقد كان الرؤساء يقولون لأتباعهم أن الأصنام تقربهم إلى الله وتنفعهم وتشفع لهم، وقد وصف الله المشركين بالظلم لتعديهم على الحق بعبادتهم للأصنام.

فعبادتهم للأصنام ليس لها سند من العقل، وليس فيها حجة يعتمدون عليها، بل هي امتهان للعقل وتحقير له، فكيف يعبد الإنسان تماثيل من صنعه ويقدم لها النذور والهدايا؟ ولا تزال التماثيل والأصنام تعبد في كثير من بقاع الأرض فهي في نظر عابديها تشفع لهم، وهي تجسد من يعبدونهم من أنبياء أو قديسين أو ملوك أو مظاهر طبيعية كل ذلك حاربه الإسلام واعتبره من كبائر الإثم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ
لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا
زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ
ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ
ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

شرح المفردات

جَهْدَ أيْمانهم : بالغوا في القسم غاية اجتهادهم فيه.

نُفُوراً : تباعداً عن الهدى وفراراً منه.

مَكْرَ السَّيِّء : المكر في آيات الله هو التكذيب بها، وتدبير الشر للغير خفية.

يحيق : يحيط وينزل.

ينظرون : ينتظرون ويتوقعون.

سُنَّةَ الأولين : طريقة الله فيهم من تعذيبهم لتكذيبهم رسله.

لِيُعْجزه : ليسبقه ويفوته.

أجل مسمى : وقت محدّد للحساب (يوم القيامة).

تابع سورة فاطر

وبعد أن بيّن القرآن أن الأصنام لا تقدر على خلق شيء في السموات والأرض بيّن بعد ذلك أن الله وحده هو خالقهما وممسكهما من الزوال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوات وَالأَرضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (٤١).

فالله سبحانه يمسك السموات والأرض بقانون الجاذبية الذي أوجده وأبدعه ويمنعهما من الزوال والسقوط ﴿وَلَئِن زَالَتا﴾ ولئن قُدِّر للسموات والأرض الزوال ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي ما أمسكهما ومنعهما من الزوال أحد بعد الله، فالسموات والأرض قائمتان بقدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ إنه سبحانه كان حليماً لا يعاجل بالعقوبة المخالفين لأوامره، غفوراً لذنوب الراجعين إليه بالتوبة والطاعة.

ثم ينتقل القرآن إلى الكلام عن المشركين وما كانوا يتطلعون إليه من طموحات قبل الإسلام، فقد كانوا يجاورون اليهود في جزيرة العرب ويسمعون من تاريخ اليهود وعصيانهم لأنبيائهم الشيء الكثير، لذلك أقسموا لئن جاءهم نبي ليكونن أهدى منهم وهذا ما يقصه علينا القرآن:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُم نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَم فَلَمَّا جَاءَهُم نَذِيرٌ مَا زَادَهُم إِلاَّ نُفُوراً. استِكْبَاراً في الأرض وَمَكْرَ السَّيِّء وَلا يَحيقُ المكرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (٤٢ - ٤٣).

فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيْمانهم﴾ الأيمان: مفردها يمين وهو القسم، أي وأقسم المشركون بالله وبالغوا في القسم جاهدين في

ذلك ﴿لَئِنْ جَاءَهُم نَذِيرٌ﴾ لئن جاءهم نبي ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ أي ليكونن أكثر هداية من الأمم التي كذبت الرسل من أهل الكتاب ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم نَذِيرٌ مَا زَادَهُم إِلَّا نُفُوراً﴾ فلما جاءهم نذير منهم وهو محمد ﷺ ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ﴾ ونفورهم كان بسبب استكبارهم عن الانصياع للحق وعلوهم في الأرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّىءِ﴾ والمكر: هو الحيلة والخداع والعمل القبيح، ومكرهم السيء هو عزمهم على قتل النبي ﷺ واضطهادهم من آمن بدعوته ﴿وَلَا يَحِيقُ المكرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ يحيق: يحيط وينزل، أي لا ينزل المكر السيء إلا بالذين يدبرونه، وقد صدق اللّه فبعد فترة وجيزة من محاولتهم قتل النبي ﷺ حصلت معركة بدر التي قتل فيها سبعون من المشركين.

﴿فَهَلْ يَنْظُرون إِلَّا سُنَّةَ الأَوَّلِين﴾ ينظرون بمعنى ينتظرون، أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا ما جرى به نظام اللّه في خلقه في الأمم المتقدمة من تعذيب وإهلاك بسبب تكذيبها لأنبيائهم واضطهادهم مع من آمن معهم ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً﴾ فلن تجد لطريقة اللّه في معاملة الأمم المكذبة لرسلها تغييراً ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً﴾ ولن تجد لطريقة اللّه تحويلاً عن اتجاهها، أي بتحويل العذاب عنهم إلى غيرهم.

ثم يلفت القرآن الأنظار إلى ما كانت عليه بعض الأمم السالفة من قوة ثم ما آلت إليه بعد تكذيب الرسل من هلاك:

﴿أَوَ لَمْ يَسِيروا فِي الأَرْضِ فَيَنظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِم وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰواتِ ولا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ (٤٤).

فاللّٰه سبحانه يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَسيروا في الأَرْضِ[١]﴾ أي أقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الأرض، لا بل ساروا في الأرض ﴿فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِم﴾ ونظروا بأعينهم آثار الهلاك والدمار الذي أنزل على من كان قبلهم من الأمم عقاباً لكفرهم وتكذيبهم للرسل كقوم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً﴾ وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً وأطول أعماراً وأكثر منهم أموالاً ﴿وَمَا كان اللّٰه لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيءٍ في السَّمٰوات وَلَا في الأَرْضِ﴾ وما كان اللّٰه ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء سواء كان في السموات أو في الأرض ﴿إِنَّه كَانَ عَليماً قَدِيراً﴾ إن اللّٰه كان عليماً بخلقه ومن هو المستحق منهم للعقاب، قدير على الانتقام ممن شاء منهم.

هذه الدعوة إلى النظر في أسباب سقوط الأمم وانهيارها إذا وعتها الشعوب ودرست أسبابها ومسبباتها وتجنبت أخطاءها فإن ذلك يوفر عليها كثيراً من الويلات والخراب الذي أصاب من كان قبلها من الأمم.

فالمجتمعات يشقيها الكفر والظلم وشيوع الفواحش والمنكرات فيها، كما أن المجتمعات يسعدها الإيمان واتباع أوامر اللّٰه الداعية إلى العدل والإحسان والخير، هذه طريقة اللّٰه في خلقه التي لا تتبدل ولا تتغير.

وأخيراً يختم اللّٰه هذه السورة ببيان حلمه على المسيئين من خلقه، وأنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولكن يمهلهم إلى وقت معين:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّٰه النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم فَإِنَّ اللّٰه كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ (٤٥).

---

(١) أوَ لم يسيروا في الأرض: الهمزة للإنكار والنفي، ونفي النفي إثبات، والواو للعطف على محذوف تقديره: أقعدوا في مساكنهم.

والمعنى: ولو يؤاخذ الله الناس ويجازيهم بما عملوا من الذنوب والمعاصي في دنياهم ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها من إنسان وحيوان ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا من المعاصي ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى وقت معين وهو يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا أيضاً بجانب عقاب الآخرة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم﴾ فإذا جاء هذا الوقت لعذابهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ أي بصيراً بمن يستحق أن يُعاقب منهم وبمن الذي يستوجب النجاة.

من المراجع

تفسير الطبري لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

التفسير الكبير للفخر الرازي

تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي .

لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين البغدادي المعروف بالخازن .

فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .

تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي .

روح المعاني للألوسي .

تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي .

صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسين مخلوف .

المنتخب في تفسير القرآن ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة .

في ظلال القرآن للأستاذ سيّد قطب .

تفسير القرآن للأساتذة محمود حمزة وحسن علوان ومحمد برانق .

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني .

صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني .

سورة الأحزاب للأستاذ مصطفى زيد .

الفهرس

وفي الختام أقدم شكري للأساتذة :
القاضي الشيخ حسين غزال .
الشيخ شريف سكر .
مصطفى قصاص .
على ما أبدوه لي من ملاحظات قيمة .

كما أقدم شكري لجامعة بيروت العربية التي أتاحت لي الاطلاع على المراجع اللازمة في مكتبتها العامرة .

وأخص بالشكر جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت لما أسدته مطابعها والعاملون عليها من جهد في تنضيد أحرف هذا الجزء من التفسير بهذه الحلة الجميلة .

راجياً من الله ان يتقبل هذا العمل وأن ييسر لي العمل على إكمال تفسير القرآن الكريم .



هَذَا التَّفْسِيرُ

- يَعرِضُ آراء المفسّرين مِن السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصْر الحَاضر .
- يُعالج التفسير بطريقةٍ مبسَّطة بعَيدة عن التطويل المملّ وَالإيجاز المخلّ .
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسُنّة النبويّة وفقه اللغة .
- يُبيّن التفسير العِلمي لآياتِ القرآن الكريم ويظهر اعجازه .
- يَعرض التفسير بأسلوبٍ سَهل وَطريقةٍ مستحدثة بحيث يَسهل فهمه على الجميع .
- يفسّر المجمَل مِنَ الآياتِ بما هو مفصَّل في آياتٍ أخرى .

الموزعون الوحيدون:

دَارُ العِلمِ للمَلايين

بيروت . لبنان . ص ب ١٠٨٥